وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية الآداب

مجلة الفلسفة

مجلة علمية محكمة نصف سنوية تصدر
عن قسم الفلسفة/كلية الآداب
Biannual Journal
الترقيم الدولي ISSN : 1136-1992

العدد العشرون
أيلول ٢٠١٩

مجلة الفلسفة
العدد ٢٠

الفلسفة

مجلة علمية محكمة نصف سنوية يصدرها قسم الفلسفة

المجلة حاصلة على المعرف الدولي Doi
تحت رقم prefix :10.35284

العدد العشرون

٢٠١٩

رئيس التحرير

أ.د.حسن مجيد العبيدي

الهيأة العلمية الاستشارية

١- أ.د. أدونيس عكرة/رئيس المركز الدولي لعلوم الانسان/اليونسكو/لبنان.

٢- أ.د. الطاهر بن قيزة /جامعة تونس الاولى /تونس.

٣- أ.د. عمر بوساحة / جامعة الجزائر /الجزائر.

٤-أ.د.محمد الشيخ/جامعة محمد الخامس/المغرب.

٥- أ.د.اشرف منصور / جامعة الاسكندرية /مصر

٦-أ.د.عماد الدين عبد الرزاق/جامعة بني سويف/مصر.

٧- أ.د. حسون عليوي السراي/الجامعة المستنصرية /العراق

٨-أ.د.عبد الكريم سلمان الشمري/جامعة بغداد/العراق.

٩- أ.د. جميل خليل المعلة /جامعة الكوفة /العراق.

١٠-أ.د. عبدالله محمد علي الفلاحي/جامعة إب/اليمن.

البريد الالكتروني

art.phi_magazine@uomustansiriyah.edu.iq

مدير التحرير

أ.د.عارف عبد فهد

كلية الآداب -المستنصرية

سكرتير التحرير

م.م. أسماء جعفر فرج

كلية الآداب -المستنصرية

الاشراف اللغوي

م.د.منار صاحب

كلية الآداب/المستنصرية

تنضيد

م.م.أثير محمد مجيد

المحاسب المالي

رنا حسين عباس

المسؤول على موقع DOI

المهندسة

ريهام ماجد عبد الكريم

الترقيم الدولي:Issn (١٩٩٢-١١٣٦)

فهرست بدار الكتب والوثائق وإيداعها تحت رقم (٧٤٢)لسنة (٢٠٠٢)

تصميم وطباعة

مكتب الإثير

للنشر والطباعة

الفلسفة

مجلة علمية محكمة يصدرها قسم الفلسفة

العدد
العشرون
أيلول
٢٠١٩

المحتويات

كلمة رئيس التحرير

محور الفلسفة الحديثة والمعاصرة

١-فلسفة الدين في الفكر الغربي المعاصر وليم جيمس إنموذجا)*	أ.د. حسن مجيد العبيدي	٣-٢٠
٢-فلسفة الرياضيات برؤية تكاملية الاتصال والانفصال	أ.م.د. كريم موسى حسين	٢١-٥٠
٣-جدلية التنبؤ عند كارل بوبر وإثرها على الفلسفة المعاصرة	م. د. علاء كاظم مسعود	٥١-٧٢

محور الفلسفة الإسلامية

٤-السِّيرةُ الذاتيَّةُ الْفَلسفيَّة وأبرزُ سماتِ الفيلسُوف	د. محمود سعيد حميدة عطية	٧٥-١١٢
٥- Muhammad On Ego,Experience and Life Conception Iqbal Religious	Dr. Rawaa Mahmoud Hussain	١١٣-١٣٤
٦-أثر الدراسات الاستشراقية في الخطاب الأركوني حول التراث	د.فريدة أولمو	١٣٥-١٤٨

محور الدراسات الأخلاقية والجمالية

٨-الأخلاق القانوني أم القانون الاخلاقي؟ (دراسة تحليلية في ضوء فلسفة القانون)	م. رقوا كاكة رقش سيد مينة م. سةردار مةلا عزيز	١٥١-١٧٠
٧-حوار الدلالة والمعنى في الفكر السيميائي بين البنيوية ومابعدها	م.م. زينة عواد عبد الله	١٧١-١٨٤

محور الدراسات النفسية والاجتماعية

٩-الكفاح الروحي الديني لدى طلبة الجامعة (الكفاح الإلهي ، الصراع الديني ، المخاطر الروحية)	أ.د. سعد عبد الزهرة الحصناوي م.م. فراس محمود عطية	١٨٧-٢١٢
١٠-التحرر من الالتزام الخلقي وعلاقته بالشعور بالخزي	أماني صالح زناد اشراف أ.م.د.ابتسام لعيبي شريجي اللامي	٢١٣-٢٣٨
١١- أثر التنوع الاجتماعي على فكرة الدولة العربية الحديثة دراسة سيسيولوجية في فلسفة الدين والقبيلة	أ.م.د. مشحن زيد محمد التميمي	٢٣٩-٢٥٢
١٢- تطور اتخاذ القرار لدى المراهقين والراشدين	أ.م .د أسيل مهدي نجم	٢٥٣-٢٧٨

قبس العدد

١٢-التفكير الإبداعي وفق فرضعة الخضراء للمنظر ديبونو (De BONE) لدى طلبة المدارس المهنية	ا.م .د.أحلام لطيف علي الموسوي	٢٧٩-٣٠٨

نص مترجم

١٣- نظريات الروح مقابل المعرفة الطبية: ابن رشد بوصفه مؤثرا في فرنسا في القرن الثالث عشر	هيذر ثورنتون ماكراي - جامعة ميسوري ترجمة: أ.م.د رحيم الشياع الساعدي	٣٠٩-٣١٨

عنوان المراسلة
العراق-بغداد-الجامعة المستنصرية
كلية الاداب/قسم الفلسفة
ص.ب:١٤٠٢٢
تلفون:٤١٦٨١١٩٨
Email:
art.phi_magazine@uomustansiriyah.edu.iq

السِّيرةُ الذاتيَّةُ الْفَلسفيَّة وأبرزُ سماتِ الفيْلسُوف

أ. م. د. محمود سعيد حميدة عطية*

ملخص البحث– تناول البحث السيرة الذاتية الفلسفية وقسمته إلى ثلاثة مباحث يسبقها تمهيد ويعقبها خاتمة، وضحت في التمهيد مفهوم السيرة الذاتية وأنواعها وعلاقتها بالفلسفة بما يوضح مفردات عنوان البحث، ثم تناولت في المبحث الأول: تاريخ السيرة الذاتية من الأدب إلى الفلسفة عرضتُ فيه لملامح هذا الفن مستعملا المنهج التاريخي في رصد تدرجه من قديم إلى الحديث مشيرا إلى أهم تطوراته من حيث الكم أو الكيف، وجاء المبحث الثاني مستعرضًا بالوصف والتحليل نموذجين من السيرة الذاتية الفلسفية لفيلسوفين كبيرين، هما: أبو بكر الرازي وابن سينا مع استعمال المنهج المقارن في الموازنة بينهما، وعرضت في المبحث الثالث لأهم السِّمات العامة للفيلسوف محاولا استنباط ذلك من خلال السيرة الذاتية، ثم خاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

Abstract

Philosophical Biography and The most prominent features of the philosopher

The research dealt with the philosophical biography and divided it into three sections preceded by a preface and followed by a conclusion.

The introduction of the concept of biography and its types and their relation to philosophy, clarifying the vocabulary of the title of the research.Then I dealt with the first subject history biography of literature and philosophy In which I adapted the features of this art using the historical method in monitoring its gradation from old to modern Pointing out the most important developments in terms of quantity and quality.

The second section is presented by describing and analyzing the two models of the philosophical biography of the great philosophers.

* قسم العقيدة والدعوة/ جامعة قطر/ دولة قطر

Abu Bakr al-Razi and Ibn Sina with the use of the comparative approach in the balance between them and the third section of the most important features of the general. The philosopher tried to deduce this through biography and then the conclusion included the most important results of research.

مقدمة: لا نعدو الحق إن قلنا إن السِّير الذاتية أضحتْ اليوم من أنماط التأليف الذائعة بين الناس بوصفها أمثلة سائرة ونماذج حاضرة؛ لما يجد فيها القارئ من عظة وعبرة أوخبرة وحكمة. فإذا استقرَّ في وجداننا أن هذا النمط من التأليف يقع –غالبًا– في مرحلة متأخرة من عُمُرِ كاتبه يُغالبُ فيها وطأة الزمن حيث يظن صاحب السيرة أنه قد بلغ ما لم يَبْلغْه غيرُهأو لديه ما يستحق أن يكتب على الأقل مما لم يَعْرض لغيره أو آنَ له أن يُبقى شيئًا من دفينةِ نفسه يحلُو له أن يُطلعَ الآخرين عليه بعد أن كان مكنونًا في طوايا صدره، أو يدفع عن نفسه ما اشتُهرَ عنه على غير الحقيقة، وهو في كل الأحوال راغبٌ في أن يبقى ذُكْرٌ من نفسه ذاتها كي تخلد في نفوس أخرى قبل أن يطويها الثرى في أي لحظة، ولا غرو ففطرة أي إنسان أَخَالُها مدفوعةً بحب الخلود والبقاء متشبثةً بالحياة ولو كانت مجرد ذكرى، لاسيما إن كانت له تجربة تستحق ألا تذهب سُدىً.

وإذا كان الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع نَقلَ تجربتِه وحده من بين الكائنات الأخرى؛ فليس بمستغربٍ أن يصلحَ كلُّ إنسان منا أن يكونَ موضوعًا لسيرةٍ ذاتيةٍ هي رحلةُ شهودِه للحياة،فإن كانت غير مكتوبة بالفعل فذلك لا ينفي أحقيتها بخلودها في أذهان معاصريها من الأبناء والأحفاد وغيرهم ممن عرفوه وعاشروه، وليس أدل على ذلك من كونها قد تنتظر فنًا آخر لدى الأدباء حيث تظهر فيه بصورة غير مباشرة؛فتأخذُ موضعها من رواية أو قصة أو قصيدة، بل إن هناك من كتاب السير الذاتية من يتوسع في جعل الكون كله سيرة حيث رأى د. زكي نجيب محمود أن الكون كله سيرةٌ وقصةٌ لها تاريخ تتدحرج وتتطور معه من الماضي إلى الحاضر وليس الأمر مقتصرا على حياة الإنسان وحده، إذ قال عن ذلك في سيرته حصاد السنين: "إن أي شيء في هذا الوجود، بل الوجود كله في مجموعه إنما هو سيرة، أي أنه تاريخ، بمعنى أنه يتألف من حالات تختلف أو تتشابه يعقب بعضها بعضا في تلاحق سريع"[1]. وإذا كان الصوفية يقولون بأن تجاربهم الروحية تتعدد بعدد نفوسهم إشارة إلى التمايز والاختلاف بين تجربة وأخرى فإننا يمكن أن نستعير هذا القول للسير الذاتية لاختلافها عن بعضها، فكل إنسان له سَيْرٌ وطريقٌ في الحياة بل قصة كبرى لو كتبت بِنَفَسِ الكاتب المحنك لكانت قصةً عظيمةً أو روايةً طويلةً فيها من الجدة والاختلاف والأحداث ما لا نجده في غيرها، وكم اندثرتْ سيرٌ ذاتيةٌ كثيرة مع أصحابها ممن فقدوا حسَّ الكاتب أو الرغبة في الكتابة، وإن

بقيتْ لهم في نفوسنا مكانةٌ وأثرٌ كبيرين بتركهم غيرهم يكتب عنهم وينقل من حكايتهم مع الأيام وحوادثها، وكم من أناس رأوا أن حياتهم ليس فيها ما يستحق أن يذكر ففارقوا الدنيا قبل أن يقولوا كلمتهم مكتفين بالسيرة الشفهية[2] أو ما يسميه الناس(بالسُّمْعة؛ أي ما يُسمع عنه من رواية)- التي تنتقل بين أمد قد لا يزيد عن جيلين أو ثلاثة بين الأبناء والأحفاد- عن السيرة الذاتية المكتوبة، فكلٌ منا- أيًّا كانت حياته أو وضعه فينا- هو سيرةٌ وحدَه تستحق أن تكتب بحيث لو توفَّرَ لها الكاتبُ المجيد لكانت من أعظم السير التي تصف تقلب الإنسان في بيداء الحياة ودروبها، وكيف يكابدها ويعانيها، ولا ريب فالإنسان ذاته خلق للابتلاء والكبد كما قال الله تعالى {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}البلد/4. وإذا كان الأدباء يحسنون تصوير أمر لم يكابدوه فماذا لو كان الفيلسوف هو الذي كتب سيرة حياته بنفسه؟! وذلك الفرق بين أن يكتب المرء عن نفسه أو يُكتبُ عنه، وذلك ما لاحظه مونتني إذ قال: "لو أن بلوطرخوس كتب لنا شيئا عن نفسه لكان استمتاعنا بمؤلفاته أعظم، وإدراكنا لمعانيها أوضح، وأثرها في نفوسنا أقوى"[3]ولعلهذه المتعة هي ما كان يقصده الأديب الإنجليزي المشهور جونسون حين قال: إن حياة الرجل حين يكتبها بقلمه هي أحسن ما يكتب عن نفسه".[4]

مشكلة البحث وتساؤلاته: ولكن السؤال الأهم الآن هل كتب القدماء سيرهم الذاتية كما يفعل المعاصرون، وإذا كانوا قد كتبوها ففي أي صورة ظهرت سيرهم؟ وهل كانوا صادقين في حديثهم عن أنفسهم؟ أم أن كتاب السيرة الغيرية كانوا أكثر صدقا وواقعية من أصحاب السير أنفسهم؟ وهل كتب التراجم والطبقات هي التي عبرت عن سيرهم، ومن ثم استغنوا بها عن الترجمة لأنفسهم؟ وهل في رغبة المعاصرين كتابة سيرهم الذاتية ما لديهم من خبرات وتجارب يريدون أن ينقلوها لم تكن موجودة عند الأقدمين، وهل السير الذهنية هذه تدلنا على حياة عقلية سلمية يمكن الاهتداء بها في التفكير دون العمل؟ فهل الزهد في الحياة على النحو الذي طولب به أبو بكر الرازي من معاصر هو الحد المطلوب في حياة الفيلسوف؟ ما هي صورة الفيلسوف كما تصورها لنا هذه السير الفلسفية؟

ما الدافع إلى كتابته سيرته؟ وإلى أي مدى كانت ذات الكاتب هي محور السيرة وأصلها بحيث لا تطغى عليه الأحداث التاريخية التي عاشها ابتلعته وغطت على ذاته وإلى أي مدى وفق في عرض شخصيته للناس وهل كان صادقا فيما أراد أن يعرضه وما المنهج الذي اتبعه؟وهل حجب أو أخفى بعض الحقائق عن نفسه حياءً أو خجلا؟

فرضية البحث:ثمة صورة ذهنية للفيلسوف وسمات خاصة كان للسيرة الذاتية دور في جلائها وتحديدها، وإذا كان الفلاسفة يختلفون عن غيرهم من الناس بحيث هل تعد فلسفتهم جزءًا من حياتهم أم أن حياتهم هي التي شكلت فلسفتهم؟.

منهج البحث وأقسامه:بناء على تلك التساؤلات المهمة حاول البحث أن يجيب عليها من خلال تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث يسبقها تمهيد ويعقبها خاتمة، وضحت في التمهيد مفهوم السيرة الذاتية وأنواعها وعلاقتها بالفلسفة بما يوضح مفردات عنوان البحث، ثم تناولت في المبحث الأول: تاريخ السيرة الذاتية من الأدب إلى الفلسفة عرضتُ فيه لملامح هذا الفن مستعملا المنهج التاريخي في رصد تدرجه من قديم إلى الحديث مشيرا إلى أهم تطوراته من حيث الكم أو الكيف، وجاء المبحث الثاني مستعرضًا بالوصف والتحليل نموذجين من السيرة الذاتية الفلسفية لفيلسوفين كبيرين، هما: أبو بكر الرازي وابن سينا مع استعمال المنهج المقارن في الموازنة بينهما، وعرضت في المبحث الثالث أهم السِّمات العامة للفيلسوف محاولا استنباط ذلك من خلال السيرة الذاتية، ثم خاتمة تضمنت أهم النتائج التي انتهى إليها البحث.

تمهيد: من الثابت أن العلوم والمعارف لا تقوم بذاتها بل لها مصادر تنسب إليها، ولا ريب أن معرفة المصدر تعد من الأمور المهمة في الإثبات والإقناع ليس ذلك فحسب بل تنسب العلوم كذلك إلى واضعيها وإلى المشتغلين بها ممن أبدعوا فيها أو أضافوا إليها، ولا ريب أن معرفة رجال كل علم ضرورةٌ يقتضيها تاريخ ذلك العلم، لا تقل أهميةً عن موضوعه أو منهجه؛ لأن العالم هو الذي وضع أصوله ومناهجه، ولعل اشتغال المحدثين واهتمامهم الكبير بعلم الرجال جرحًا وتعديلًا لهو من بذور فن السيرة الغيرية في الإسلام، ومن ثم تعد معرفة أحوال العلماء وسيرتهم العلمية من الأمور الضرورية التي تعين الباحثين والمشتغلين بالعلم للتعرف على فلسفتهم ومناهجهم[5]، ومن هنا كان الاهتمام بكتب الطبقات وتنوعها كما ظهرت طبقات الفقهاء والنحويين والشعراء واللغويين والأطباء والمتكلمين والصوفية والقضاة؛ فتنوعها يحفز القارئ نحو حذو سيرتهم اقتداءً وتأسيًا لاسيما إن كان من المحبين للعلم الذي يشتغلون به، وقد يرجع الأمر إلى فضول الباحثين في معرفة أحوال الذين سبقوهم كي يستفيدوا من خبراتهم وتجربتهم في الاشتغال بالعلوم والمعارف التي يمكن أن نقرأها من خلال أشخاص فلا غرو أن تكون الأديان ذاتها مرتبطةً بسير الأنبياء الذين أُنزلت عليهم، وكذلك الفلسفات مرتبطة بل تدور في فلك أصحابها سواء أكانوا من المسلمين أو الغربيين فترتكز الفلسفة حول فلاسفة المشرق كأشخاص الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن طفيل وابن باجه أو فلسفة ديكارت وكانط وهيجل ... من الغربيين، ولعل في مقدمات تلك الكتب التي يؤلفونها شيء من الحديث عن الذات المفكرة أو موقف ما أو طريقة ما سار عليها في كتابه أو سؤال دار في عصره حاول الإجابة عليه أو دعاء لملك أهدى له كتابه وجملة ذلك لا يخرج عن الإطار العام للسيرة الذاتية.

وإذا تتبعنا التاريخ الإنساني سنجد أنه حفل بصناع أحداثه من الأبطال كما حفل بصناع الأفكار وخلَّد سيرهم غير المكتوبة[6]، وإن شابها شيء من المبالغة أحيانا أو

الإعجاب أحيانا أخرى، أو شيء من النقص أحيانا حتى يدرأ عن نفسه تهمة تزكية النفس بما ليس فيها، أو إعراض صاحب السيرة عن ذكر خواصه وأسراره، بحسب ما يصلنا عنها، ولعل أصدق ما يصلنا عن إنسان هو ما يكتبه بنفسه عن ذاته فهو أخبر الناس بها؛ إذ يعطيها حقها بيد أن كثيرين من العلماء والمؤرخين والفلاسفة لم يمنحوا أنفسهم فرصة كي يعبروا عمَّا عنَّ لهم من أحداث ونوازل مؤثرين الأحداث والأفكار والنظريات على أنفسهم تاركين حظ أنفسهم من الخلود أو أن بعضهم لم يجد في حياته ما يستحق أن يكتب تواضعا لاسيما إذا كانت حياته عادية يشترك فيها مع غيره. أو أن في حياته أسرارا وغموضا يخشى مشاركة غيره أو إذاعتها لاسيما إذا كان كاتبها ينتمي إلى بعض البيئات الثقافية المغلقة، التي تقرأ البوح على أنه نوع من العُجْب وحُبِّ الظهور أو تزكية النفس ومدحها بما لم تفعل أو الوقاحة والغرور، ولذلك نجد أحد المترجمين لأنفسهم في العصر الحديث "أحمد أمين" يقول عن كتابة سيرة حياته "حياتي": "لم أتهيب شيئًا من تأليف ما تهيبتُ من إخراج هذا الكتاب فإنكل ما أخرجته كان غيري المعروض وأنا العارض أو غيري الموصوف وأنا الواصف، وأما هذا الكتاب فأناالعارض والمعروض والواصف والموصوف، والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة، والشيء إذا زاد قربه صعبت رؤيته، والنفس لا ترى شخصها إلا من قول عدو أو صديق أو بمحاولة للتجرد تم توزيعها على شخصيتين: ناظرة ومنظورة، وحاكمة ومحكومة، وما أشق ذلك وأضناه .ومع هذا فكيف يكون الإنصاف؟ إن النفس إما أن تعلو في تقدير ذاتها فتنسب إليها ما ليس لها أو تبالغ في تقدير ما صدر عنها أو تبرر ما ساء من تصرفها، وإما أن تغمطها حقها ويحملها حبّ العدالة على تهوين شأنه افتسلبها مالها، أو تقلل من حتمية أعمالها أو تنظر بمنظار أسود لكل ما يأتي منها.أما أن تقف مننفسها موقف القاضي العادل، والحكم النزيه، فمطلب عز حتى على الفلاسفة والحكماء"[7]، ومهما يكن من أمر ففي الوقت الذي يصعب على النفس كتم الأسرار والحفاظ على الخصوصية الشخصية فإن للبوح متعة وتطهرا سعى كتاب السيرة إليه وقد كشفوا الغطاء عن حقائق ربما تدفع بعض القراء للإعجاب وآخر للإشفاق وثالث للإعراض وهكذا يكون مصير كل من عرض نفسه على الناس فقد جعل نفسه غرضا لسهامهم.

أولا: مفهوم السيرة:

السيرة –لغةً– هي الطريقة أو السنة أو الهيئة وقد ورت في القرآن الكريم هذه اللفظة بالمعنى الأخير كما في قوله تعالى عن عصا موسى: {قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} طه/21 ، أي إلى هيئتها وطبيعتها التي كانت عليها، ويقال سيَّر سيرةً أي، حدَّث بأحاديث الأوائلكما ورد لدى ابن منظور[8]، وإذا أُطلِق لفظُ السيرة فيإطار الثقافة العربية فينصرف الذهن مباشرة إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، "ثم اتسع لفظ السيرة ليشمل سيرة معاوية وبني أمية، وظلت السيرة عصورا يقتصر استعمالها

على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، أو حياة العظماء من المسلمين، ثم تطور الاستعمال فاستعملت لفظة السيرة بمعنى حياة الشخص بصفة عامة"[9] أما إذا قُيِّد بوصف(ذاتية) فتعني كل ما يكتبه الإنسان عن نفسه وأحواله وأخباره التي مرَّ بها من مولده إلى وفاته[10]. وأصل هذه الكلمة له ما يقابله في الثقافة اليونانية Biographie ، وهي مكونة من شقين: Bio وتعنى (حياة) وgraphie وتعني (كتابة) أي أن معنى البيوجرافي (كتابة حياة) وأول من استعملها من اليونانيين المؤرخ بلوتارخوس الذي عاش فيما بين منتصف القرن الأول الميلادي والقرن الثاني الميلادي وتقريبا فيما بين عامي 120-46م.[11]وعرَّف لاروس السيرة الذاتية عام 1866 بأنها "حياةٌ فرد مكتوبة من طرفه" وورد لها تعريف آخر في مقدمة كتاب فيليب لوجون بأنها: "حَكْيٌ استعادي نثري، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"[12] وعرفها محمد عبد الغني حسن بقوله: "هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره. ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيما من أحداث تعظم وتضؤل تبعا لأهميته، وهي مظنة الإغراق والمغالاة غالبا وشرك للحديث عن النفس والزهو بها وإغلاء قيمتها ولكنها إذا اعتدلت كانت أصدق ما يكتب عن رجل وأكثره انطباقا على حياته"[13] ونلاحظ أن التعريفات الثلاثة تتفق على ثلاثة أمور مهمة، وهي: مكتوبة من طرفه، أن الكاتب هو الموضوع ذاته، مقدار صدقه في الرواية.

من الجليّ أن موضوع السيرة أو المضمون هو الشخص أو الذات الراوية، والوسيلة التي يقدم بها هذا المضمون هو اللغة الفنية المعبرة التي تخرج في شكل معين، ومن ثم فليس بالضرورة أن ينقل لنا الكاتب الحقيقة كاملة فيسجل عن نفسه اعترافا له أو يذكر الأحداث الخارجية بدقة فتكون بمثابة مذكرات له، أو يتحدث عن أشخاص غيره فتكون رواية أو يصف الواقع اليومي فتكون يوميات أو يجمح بخياله، وغاية الأمر أن السيرة الذاتية هي ما كتبه شخص ما عن حياته ومسلكه المعرفي والفكري فيها، ونهجه في الحياة، أو هي بعبارة أوضح تاريخ حياة الإنسان عن نفسه من مبدئه إلى قرب منتهاه.

ثانيا: أنواع السيرة:

بناءً على التعريف السابق يمكن النظر إلى السيرة من خلال النوعين الآتين:

1) السيرة الغيرية: هي ما يكتبه بعض الأفراد عن غيرهم راصدين لحياتهم أو مبينين لسبب شهرتهم وأهم أعمالهم وأثرهم، وقد يأتي ذلك لصلة ما بينهما أو لإعجاب بشخص ما أو القرب من شخص ما للتأسِّي أو الاعتبار، وهذا النوع يعدُّ هو الأقدم والأكثر انتشارًا؛ لأنه مرتبطٌ بتاريخ الإنسان على الأرض، وإن كان هذا التاريخ لا

يحفل بالمغمورين، ومن هنا نجد كلامًا عن السلاطين والملوك والأبطال والقادة والوزراء وغيرهم، ومن ثم فهي أقدم من السيرة الذاتية.

2) السيرة الذاتية: هي ما يكتبه الشخص عن ذاته كما يحب أن يظهرها.وهذا النوع هو الذي اعتمده البحث في تناوله لاسيما السيرة الفلسفية منه حتى نكتشف ما الذي يميز السيرة الفلسفية عن غيرها إن أمكن ذلك ولماذا السيرة الفلسفية؟

ثالثا: علاقة السيرة الذاتية بالفلسفة:أشار إلى هذه العلاقة أبو بكر الرازي في سيرته الفلسفية حيث ربط بين الله والإنسان عن طريق الفعل الفلسفي الذي يتشبه فيه الإنسان بالله تعالى، وإذا كان الله عز وجل هو العالم الذي لا يجهل والعادل الذي لا يجور بل هو العلم والعدل والرحمة بإطلاق "وكان لنا بارئا ومالكا وكنا له عبيدا مملوكين فإن أحب العبيد إلى مواليهم آخذهم بسيرهم وأجراهم على سنتهم، كان أقرب عبيد الله جل وعزّ إليهم أعلمهم وأرحمهم وأرأفهم، وكل هذا الكلام مراد قول الفلاسفة جمعيا: إن الفلسفة تعني التشبه بالله (بأفعاله وصفاته الإلهية) بقدر ما في طاقة الإنسان، وهذه جملة السيرة الفلسفية"[14]، وذلك يعني أن السيرة الذاتية الفلسفية يرتبط فيها جانبان ارتباطا وثيقًا: الجانب الأول يتعلق بالعلم من جهة(لاسيما العلم الإلهي منه هنا) والجانب الثاني يتعلق بالعمل بقدر الطاقة(أو التشبه).

لا ريب أن تختلف السيرة الفلسفية عن غيرها بأنها تعلو عن التفاصيل الدقيقة والوصف الروائي الرائع الذي يكتنف مكان النشأة وزمانها، وليس ذلك إعراضا من الفيلسوف عن رؤية الأجزاء أو الإحساس بها ولكن ربما تغلبه طبيعته في التجرد والتعالي عن التفاصيل البسيطة لإدراكها في صور كلية، فهو لا يهتم بالواقع أو الوقائع قدر اهتمامه بطرق معرفته وتدرجه في أطواره الفكرية والمعرفية، وليس أدل على ذلك من أن الفارابي قد نبَّه على بعض الأمور المهمة التي ينبغي معرفتها قبل تعلم الفلسفة التي أخذت عن أرسطو على سبيل المثال، حيث ذكر تسعة أشياء ذكرها جميعا في رسالته بعنوان "فيما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة" ويهمنا منها هنا ما أورده في الخامس والثامن منها، حيث قال في الخامس: "معرفة السبيل التي يسلكها من أراد الفلسفة .. والثامن معرفة الحال التي يجب أن يكون عليها الرجل الذي يوجد عنده علم الفلسفة .."[15]، فالأول هو طريقة المعرفة(العلم) والثاني هو السلوك العملي بها،ولا ريب أن مثل هذين الأمرين يعدّان في غاية الأهمية إذا ما أردنا أن نقف على السيرة الذاتية الفلسفية آخذين في الاعتبار تلك الأمور المذكورة باعتبار أن السيرة الذاتية تجربة عملية توضح لنا مسلك الفلاسفة في تناولهم للعلوم الفلسفية وغيرها، ومن هنا قال أبو بكر الرازي موضحا أن الخلل في أحد الطرفين لا يجدر بالفيلسوف: "وذلك أن المستحق لمحو اسم الفلسفة عنه من قصّر في جزءَي الفلسفة جميعًا– أعني العلم والعمل– بجهل

ما للفيلسوف أن يعلمه أو سار بما ليس للفيلسوف أن يسير به، ونحن بحمد الله ومنِّه وتوفيقه وإرشاده فبُرَآءُ من ذلك"[16]. أما الأمر الثامن الذي ذكره الفارابي كذلك لا يعدو أن يكون المقصود به السيرة الذاتية فهي ترصد بالتأكيد الحال التي يجب أن يكون عليها الفيلسوف أو سار عليها.

وإذا كان هذا المستوى هو حظ الفلاسفة والحكماء أنفسهم فإن معرفة سيرهم باعتبارها مثالا يحتذي تصير أشد لاسيما لو كان هناك نموذج بشري فلسفي يُقتدي به ولا يكون ذلك النموذج صالحًا إلا إذا كان متشبهًا بالمثال(الإلهي)، وبذلك يكون نموذجا عمليًّا تربويًّا، وبناءً عليه تكون السيرة الفلسفية هاديةً لمن يريدون أن يحذوا حذو الفلاسفة أو يطلعوا على سيرهم على سبيل التشبه بهم والتَّأسي بفعالهم، والاحتذاء بمسلكهم والإفادة من تجاربهم وخبراتهم، لاسيما أن الإنسان نبت بيئته.

المبحث الأول: تاريخ السيرة الذاتية من الأدب إلى الفلسفة: ليس من المبالغة القول بأن السيرة الذاتية من أكثر الفنون الأدبية قربًا ومحبةً إلى نفس القارئ، لاسيما إذا كانت تحكي تفاصيل حياة المشهورين وأسرارهم، وهي أمور لَشَدَّ ما يشتاق إلى معرفتها القارئ أو محبّ الحكمة لا سيما إذا كانت سيرته تتشابه مع رحلة حياة القارئ نفسه؛فيلتمس فيما يقرأ زادًا فكريًّا أو قدوةً عملية أو حلًّا أو مسلاةً تُسهم في حَفْزِ هِمّته نحو غاياته ومآربه فضلًا عن أنها تَمْتَاحُ من نفس الكاتب وفكره ودخائله ووجدانه، بحيث يَشعرُ القارئُ معه أن صاحب السيرة الذاتية يَصْدُقُه وحدَه بل يصارحه بخوالجَ نفسِه وما يعتملُ فيها، ويَعظُمُ قدرُها بقدر ما يكشف عن عمق باطنه، ومن هنا فإنه يخلق آصرةَ قُربى بينه وبين القارئ، وقد صوَّر ذلك الأمر د. إحسان عباس في سيرته بقوله: «وكاتب السيرة قريبٌ إلى قلوبنا؛ لأنه إنما كتب تلك السيرة من أجل أن يوجد رابطةً ما بيننا وبينه، فضلًا عن أنه يحدثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته حديثا يلقى منا آذانًا واعيةً؛ لأنه يثير فينا رغبةً في الكشف عن عالم نجهله، ويوقفنا من صاحبه موقف الأمين على أسراره وخباياه، وهذا شيء يبعثُ فينا الرضي»[١٧]علاوةً على ذلك فإن قالب القصة محببٌ إلى النفس، وهو الأسلوب الذي يجذب كثيرًا من القراء على اختلاف مستوياتهم الثقافية، لاسيما إذا انتمى المضمون السردي إلى المسكوت عنه؛ إذ إن البوح بما في القلب اعترافًا يلامس صدقُه شغافَ قلب القارئ ويدفعه إلى التعلق بأهداب سيرة السارد.

ولا ريب أن السيرة الفلسفية تختلف نوعًا ما عمَّا يماثلها من أجناسٍ أدبيةٍ أخرى من حيث الشكل أو المضمون أيضا، فليس فيها ما يتغياه المؤرخ الروائي من رصد الأحداث التاريخية الكبرى التي تقسم معاقد التاريخ، ولا الأحداث اليومية بتفاصيلها الصغيرة المتكررة التي سارت عليها حياته، فيسجل بنفسه بعض الأحداث الصغيرة التي تركتْ آثارها في نفسه، ويرصدها كل يوم في شكل (يوميات[18])(Diaries) أو كل فترة في شكل (مذكرات

(Memoirs[19]) تُعِينه على تذكر أهم الأحداث التي لَعِبَ فيها دورًا يَحسُن الوقوف عليه وتذكره من جديد، وربما حَمَله تذكرُها على مراجعة نفسه وتأمّل حاله في ضوئها، وليست السيرة الذاتية من ذلك النوع الذي يقوم على استرجاع الذكريات Reminiscences من زمن سحيق قد يعرو فيه اليوم عمّا ينفرد به عن غيره من أقران عصره إلا بما دوَّن وسطّر، وليست كذلك من النوع الذي يقوم صاحبه كذلك على الدفاع والتماس العذر فيما وقع فيه من أخطاء معترفًا بها فيما عرف بالاعترافات (Confession[20])، أو هي تلك الكتب التي تعدد المناقب والمثالب أو نوع من فيض الخاطر فحسب.

بالرغم من أننا نتحدث عن نوع من السيرة ينفرد نوعًا ما عن هذه الأنماط السابقة من مذكرات أو ذكريات أو اعترافات أو يوميات أو رواية، أو مجرد سرد للمشاهدات والرحلات فيما يعرف بأدب الرحلات، أو الخواطر والتأملات في الحياة. أو شهادة على العصر كما نشاهد في برامج اليوم – فإن السيرةَ الذاتيةَ الفلسفية بعامة يمكن أن تتبنى من كل ذلك بحيث تتقاطع معها أحيانا وتتداخل أحيانا أخرى؛ ولا عجب في ذلك إذا كان محورها جميعًا هو الشخص ذاته، حيث ينطلق من واقعه الذاتي قبل الواقع الخارجي، وبناء عليه تتفاوت السير الذاتية فيما بينها بحسب طبيعة الذات وما يعرض لها وكيف تتلقاه وتشعر به أو تتأوّله وتعيد إنتاجه، ومن هنا فالذاتية تغلب الإطار الموضوعي الخارجي حسب درجات الصدق والاتساق بين الذات والموضوع.

وليست السيرة الفلسفية كذلك مقتصرة فقط على النوع الذي يترجم فيها القرين لمعاصره وفاءً بحقه أو التلميذ اعترافًا بفضل أستاذه كما فعل أصحاب التراجم والطبقات[21].ولا يخفى أن الناظر في مسالك الذين اهتموا بالتدوين عن السير يجدها متنوعةً "فمنها أن يكتب الابن ترجمة أبيه، والقريب ترجمة من يتصل به بنسب أو سبب[22]. ومنها أن يكتب التلميذ ترجمة شيخه. ومنها أن يكتب الرصيف ترجمة رصيفه وعصريه وفاءً لحقه ونشرًا لفضله".[23]

لقد حاول نقاد الأدب رصد التفاوت بين هذه الأنواع المذكورة التي اتخذت السرد والقص شكلا لها، واتّضح لهم أنها تنتمي من حيث المضمون – غالبًا– إلى جنس أدبيٍّ واحدٍ بصورة أو بأخرى؛ لأن صاحب السيرة يعدُّ هو الكاتب والموضوع في وقتٍ واحدٍ، فهو الذي يروي ويسرد معبرًا عن دفائن نفسه، كاشفًا عن أسرار تتعلق به أو بغيره، وهو الذي يرسم صورةً فنيةً عنه، يُظهر نفسه من خلالها دفْعًا للتهميش أو تبريرا لمواقف معينة، فهو الذي يختار الأحداث والوقائع بما تجاوبتْ فيه نفسه مع الحدث أو ذاك فقد تكون هنالك الأحداث العظيمة التي تتزامن فعلًا مع مفاصل حياته، ولكنه لا يعبأ بها؛ لأنها ليستْ جزءًا من حياته الخاصةلاسيما إذا لم تؤثر فيه تأثيرًا مباشرًا، ومن ثم فلا نحاسبه على ما يحاسب عليه المؤرخون أو العلماء من أسس الموضوعية والحياد.

على الرغم من كثرة السير الذاتية قديمًا وحديثًا فإن نقاد الأدب العربي لمَّا يتمكنوا بعدُ من وضع قواعدَ صارمة وواضحةٍ لهذا الفن، وإن كانوا قد عدُّوه جنسًا أدبيًّانثريًّا جديدًا نشأ في العصر الحديث لدى الغربيين باعتبار أنه يأتي على نحو أخص من السرد الروائي والقصة أو بعدهما قليلا، بل قد تأتي السيرة الذاتية أحيانًا في ثوب الرواية على سبيل التَّخفّي من المباشرة والتصريح الذي قد يعرّض صاحبه للنقد أو اللوم أو التجريح الذي يعْقُب كشف ذاته للجميع فاستعمال أسلوب الرواية يتيحُ له قدرًا من الصدق[24].

ومن هنا تتعدد صور السِّير بحسب كلِّ كاتبٍ من حيث الشكل والمضمون؛ ولعل مرجع ذلك إلى الذاتية أو التجربة الخاصة التي يحكي عنها كل كاتب منطلقًا من ذاته هو وحده، والثابت أن التجارب الذاتية الخاصة تتعدد بتعدد أنفس الكاتبين وإن تشابهت سواء من حيث الشكل أو المضمون الذي يُراد سردُّه. ومهما يكن من أمر فإن هناك معالم أساسية يمكن أن نميز بها هذا الجنس الأدبي عن غيره من الأجناس الأخرى، وإن كانت تلك المعالم تمثل بدورها إشكاليات جديدة، مثل إشكالية السيرة في التطابقبين الذات والموضوع، فالكاتب كأنه يكتب عن إنسان آخر في وقت ما، ومن ثم فهو لا يرصده كما حدث في الواقع فحسب وإنما يفيض عليه من ظلال خبرة اللحظة الراهنة، وهنا تظهر إشكالية الارتكاز على الحاضر والقدرة على التخيل باسترجاع ذكريات الماضي (الفلاش باكflash back) وأخذ أحداث وترك أخرى(الانتقائية)، وهنالك تتداخل الأزمنة الثلاثة في اللحظة الواحدة بين محطات الماضي بنَفَسِ وخبرة الحاضر من أجل تخليد الذِّكر في المستقبل، علاوةً على أن السيرة التي يكتبُها ما زالتْ باقيةً لمَّا تَكْتَمِلْ بعدُ[25]، ويرتبط بذلك إشكالية أخرى تتعلق بطبيعة الأسلوب السردي ذاته، أو طريقة الحكيّ النَّثريّ المكتوب، فهل الضمير المستعمل في السرد هو ضمير المتكلم أو الغائب؟ فالثقافة العربية الشعبية تميلُ إلى استعمال ضمير الغائب – في حال البوح والاعتراف – وتحاشي استعمال ضمير المتكلم(أنا) بل تستعيذ منه على الرغم من أن هناك فرقًا واضحًا بين "أنا" بمعنى الذات الفاعلة السَّاردة و"الأنا" بمعنى الأثرة وحب الذات(الأنا/نية)[26]، وذلك مرتبطٌ بإشكالية الخصوصية الذاتية وإمكانية المجاهرة بها، وقد لاحظ المستشرق الألماني "رودلف زلهايم" أن العرب على الرغم من دقة وصفهم للجزئيات الصغيرة والتفاصيل الدقيقة للطبيعة المحيطة بهم فإنهم لم يقدموا مثل هذه الصورة الكاملة لمن يترجمون لهم؛ ويرجع ذلك في رأيه إلى سببين: تأنيب الضمير الذي يترتب على الاعتراف. والثاني هو الخجل الذي يمنع من الحديث عن أمور شخصية، وهو خلقٌ حضَّ عليه الإسلام[27]، وتأسيسًا على ذلك قد يلجأ الكاتب إلى الأسلوب الروائي أو إلى الأسلوب الرمزي حتّى يدفعَ عن نفسِه ما قد يَلْحَق به من اتهاماتٍ أو ظنون[28]، ومهما يكن من أمر تلك الإشكاليات فليس البحث معنيًّا بها هنا إلا بما يلقى ضوءًا على الموضوع الذي نحن بصدده.

إن سلمنا بتطورات هذا الفن في الغرب اتساقًا مع النزعة إلى الفردانية والذاتية التي اتسم بها عصر الحداثة وما بعده والدوران في فلك الإنسان باعتباره محورًا للوجود بعد إخضاعه للطبيعة وسيطرته عليها حيث حلَّتْ النزعةُ العقلية التي أثمرتْ العلم بثوراته الزراعيّة والصناعيّة والتكنولوجيّة بدلًا من الدين المتمثل في صورته الكنسيّة المستبدة – فإن هذا لا ينفي نشأته وظهوره في التراث العربي والإسلامي لدى مؤرخين وفلاسفة وصوفية ومفكرين، وإن لم يكن ظهوره صريحًا تحت هذا المسمى(سيرة ذاتية)، إذ لم يغفلْ عنه العرب أيضا؛لأنهم عرفوه كذلك فيما يسمى بكتب التراجم والطبقات ولنضرب مثالا لذلك من الفلاسفة أنفسهم حيث "نجد مثل هذه التراجم الذاتية أيضا في القرن الخامس للهجرة، إذ كتب كلٌّ من ابن سينا (ت428هـ)، وابن الهيثم (ت430هـ)، وعلى بن رضوان(ت460هـ) سيرهم، ذكرها ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء، فابن الهيثم كشف في ترجمته عن حيرته وشكوكه من المعتقدات السائدة في زمانه واختلاف الفرق بينها، وقد ولَّدَ ذلك في نفسه صراعًا روحيًّا وفكريًّا اهتدى في آخر الأمر إلى أن الحق واحدٌ وأن الاختلاف بين الطوائف والملل والمذاهب إنما هو في طريق الوصول إليه، ورأى أنه لا وسيلة للوصول إلى ذلك إلا بالتمسك بآراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور الفعلية، والترجمة في مجملها مقالة صوَّر فيها كاتبها حياته العلمية وما صنعه من علوم الأوائل إلى آخر سنة 417هـ، مظهرا تأثره بالفيلسوف اليوناني جالينوس".[29]، وقد ظهرتْ كذلك السيرة في صورة (نصيحة) كما فعل ابن الجوزي(ت597هـ) في كتابه "لفتة الكبد في نصيحة الولد" حيث تحدَّث فيه عن نشأته وشيوخه وكتبه وسلوكه وأحواله في الدعوة وظروفه المالية، أو أتت في صورة كتاب مؤلف حول جانب مهمّ من جوانب الشخصية كما فعل أبو حيان(ت414هـ) في "الصداقة والصديق" الذي ضمنه كثيرًا من البوح عن جوانب حياته الشخصية أو ابن حزم(ت456هـ) كتابه "طوق الحمامة" الذي ألقى بكثير من الضوء على حياة ابن حزم نفسه وعلى محيطه واتَّسم بالجرأة والصراحة التي لم تكن تتوافر لغير ابن حزم لما له من جلال الشيب ووقار الفقه[30]فكثير من أصحاب السير لم يتطرقوا في سيرهم إلى مثالبهم إلا بما يكون له وجه من الحمد.

ولا يعدم تاريخنا العربي سيرًا أخرى لمؤرخين غلب عليهم الطابع التاريخي، مثل: كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ(ت548هـ) الذي يعدُّ سيرةً متكاملة صوَّر فيها جُنْديّتَه وفروسيته وأطرافًا من الحياة في عصر الأيوبيين، وسيرة عمارة اليمني(ت527هـ) التي أوردها في كتابه "النكت العصرية في الإخبار عن الوزارة المصرية" وترجم فيها لنفسه كاشفًا عن ميله للفاطميين وسرد صورا من حياتهم، وما فعله كذلك العماد الأصفهاني(ت597هـ) في كتابه "البرق الشامي" حيث أرَّخ فيه لنفسه وما جرى له في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وقد شبَّه سرعة انقضاء تلك الأيام الجميلة بالبرق الخاطف،ومنها ما فعله أيضا ابن خلدون (ت708هـ) كذلك في "رحلته شرقا

وغربا"،ولسان الدين بن الخطيب (ت776هـ) في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة"، ومن أشهر من ترجموا لأنفسهم كذلك محمد بن طولون(ت953هـ) في كتابه "الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون"، ومحمد بن محمد الجزري(ت833هـ) في كتابه "غاية النهاية في طبقات القراء"، وجلال الدين السيوطي (ت911هـ) في كتابه "حسن المحاضرة في أخبار القاهرة"، وكتابه أيضا "التحدث بنعمة الله" وغيرهم.

ومن السير الكلامية ما كتبه داعي الدعاة المؤيد في الدين هبه الله بن موسى بن داود الشيرازي المتوفى(470هـ) وإن لم يحدثنا المؤيد في سيرته عن حياته بأكملها أو يذكر لنا شيئا عن أسرته أو أساتذته حيث كان رجلا يدين بالستر فلم يشأ أن يزيح الستر عن شيوخه الذين أخذ عنهم، ولا عن الدعاة الذين اتصلوا به وأخذوا عنه.[31]

وهناك تراجم ذاتية كثيرة للصوفية غلب عليها بيان الجانب النفسي وما يتعلق به من مسالك أو مدارج أو معارج، منها ما كتبه الحارث المحاسبي(ت297هـ) في "النصائح الدينية" التي تعدُّ إلى الاعتراف أقرب منها إلى السيرة الذاتية، حيث كشف فيها عن دقائق نفسه، وكذلك الحال بالنسبة لآلام الحلاج(ت309هـ)، وقريب من ذلك جدا ما فعله الغزالي(ت505هـ) في اعترافه في كتابه "المنقذ من الضلال" واهتدائه إلى طريق الصوفية بعد خروجه من ضلال الفُرقَة والاختلاف، وهناك من يعدّ "الغربة الغربية"للسهروردي المقتول(ت587هـ) جزءًا من سيرته الذاتية باعتباره اتخذ من القصة شكلا يُواري به رحلة العقل الإنساني في الوصول إلى الحق واتصاله بحكمة الإشراق، وكذلك فعل ابن الفارض (ت632هـ)حيث جاءت سيرته على شكل نظم "قصيدة" سماها نظم السلوك، صوّر فيها معرجه الروحي وما عاناه من شدائد، وكذلك أبو شامة المقدسي (ت665هـ) إذ كتب ترجمة لحياته الصوفية ضمنها كتابه "الروضتين في تاريخ الدولتين دولة نور الدين ودولة صلاح الدين الأيوبي". وابن عربي (ت638هـ) في كتابه "روح القدس في مناصحة النفس". وكذلك الشعراني(ت973هـ) في كتابه "لطائف المنن والأخلاق" في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق.

وقد استمرتْ تلك الروح في التجلي في العصر الحديث، ولكنها صبغتوانطبعت بروح الإصلاح والتجديد ومحاولات النهوض، وظهر ذلك في العديد من السير بحيث يمكن أن تجد جانبًا أو أكثر من جوانب الإصلاح في كل سيرة، فهناك سيرة ذاتية للمعلم والمخطط على باشا مبارك (ت1892م) في كتابه "حياتي"وشذرات أخرى منها في كتابه "علم الدين"، وهناك سيرة للقانوني المترجم رفاعة رافع الطهطاوي(ت1873م) في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، وهناك سيرة للمصلح اللغوي لأحمد فارس الشدياق (ت1887م) في كتابه "الساق على الساق فيما هو الفرياق". كما نجد المصلح المربي محمد عبده)ت1905م) في سيرته التي لم يتممها بنفسه وأتمها تلميذه محمد رشيد

رضا(ت1935م) في كتابه "تاريخ الأستاذ الإمام"،ولعل "أهم ما يميز الترجمة الذاتية في الإطار الفكري: الخروج على السائد، ومحاولة بذر بدور الإصلاح وتشجيع الأخذ عن الغرب بدرجات متفاوتة من كاتب لآخر، ومحاولة تصوير الصراع مع المجتمع، لاسيما مع النماذج النمطية فيه، والشعور بالغربة، وتصوير الصراع النفسي المضني نتيجة المشاعر المتناقضة"[32]. ولعل تطورًا ما قد طرأ على السيرة الذاتية التي ظهرت في العصر الحديث حيث تأثرتْ بالنمط الأوروبى ولاسيما فيما ظهر من شكل قصصي أو روائي بأسلوب أدبي عند توفيق الحكيم في "زهرة العمر" وطه حسين في "الأيام" والعقاد في "أنا" وأحمد أمين في "حياتي".

وقد ظهرت في يومنا المعاصر أيضا كثيرٌ من السير الذاتية للمشتغلين بالفلسفة في الجامعات المصرية بدءًا من الشيخ مصطفى عبد الرازق(ت1947م) رائد الدرس الفلسفي في مصر الذي كتب شيئا من مذكراته لاسيما رحلته إلى باريس فيما ورد عن طه حسين بتقديم أخيه على عبد الرازق بعنوان "من آثار مصطفى عبد الرازق صفحات من سفر الحياة" و"مذكرات مسافر ومذكرات مقيم وآثار أخرى في الأدب والإصلاح"[33]، ومنها ما ورد كذلك عن أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد(ت1963م) في كتابه"قصة حياتي"، وكذلك ود. سلامة موسي(ت1958) "تربية سلامة موسى" 1947، ود.إبراهيم بيومي مدكور (ت1996م)"ذكرياتي مع الأيام"وفعل ذلك عبد الرحمن بدوي(ت2002هـ) في جزأين بعنوان "سيرة حياتي"،ولعل زكي نجيب محمود(ت1993هـ) في العصر الحديث قد رصد واستعمل ما يعبر به عن ذلك التطور الفكري في سيرته حيث كتب قصة نفس1965،ثم "قصة عقل1983، وحصاد السنين1991. "، ود. حسن الشافعي في كتابه"حياتي في حكاياتي"، ود. حسن حنفي كذلك في (ذكريات 2018-1935)، ولا يخفى أن الروح الفلسفية تكاد تسيطر على حياة كاتب السيرة إن تقليدا أو تجديدا.

ولم تقتصر تلك الروح الفلسفية بمواقفها على رواد الفلسفة العربية والإسلامية السابقين في جامعة القاهرة فحسب بل كانت جليَّة أيضا في جامعة الأزهر حيث تخرج ثُلةٌ من الرواد الذين درس أغلبهم في فرنسا، وانعكس ذلك على سيرهم ومنهم د. محمد البهي(ت1982هـ)في كتابه حياتي في رحاب الأزهر طالبا وأستاذا ووزيرا للأوقاف، وكذلك د. عبد الحليم محمود(ت1978م) الذي بات شيخا للأزهر هو الآخر في كتابه "الحمد لله هذه حياتي" الذي نشره سنة 1976م، ود. محمد إبراهيم الفيومي(ت2006م) الذي كتب سيرته بعنوان "أيامي، حديث نفس مغتربة: سيرة ذاتية"، ونشره سنة 1998. واستمرّ ذلك النهج لدى الأجيال اللاحقة لهم في جامعات أخرى فكتب د.أحمد محمود صبحي(ت2004م) الأستاذ بجامعة الإسكندرية سيرته الفكرية والفلسفية تحت عنوان "هاؤوم اقرأوا كتابيه"، وكتب د.عبد الوهاب المسيري (ت2008م) الذي كان أستاذا بجامعة عين شمس سيرته الذاتية تحت عنوان "رحلتي الفكرية البذور والجذور والثمار"

وغيرهم.

وهناك بعض السير الذاتية العلمية التي قُدِمتْ بناء على طلبها من أصحابها إيمانًا بأهمية التأريخ الفلسفي المعاصر عن طريق كتابة السيرة الذاتية، ومن ثم كتب بعض الأساتذة سيرتهم في أوراق معدودة، مثل: د. محمد رشوان مهران (ت2005م)، قبل وفاته بعام بعنوان "لقطات من سيرة ذاتية/علمية"[34] ود. ماهر عبد القادر بعنوان "على طريق الفهم سيرة عمل وحياة"[35]، وعلى الرغم من كثرة السير وتأثرها بالسيرة الذاتية لدى الغربيين سواء في بالجرأة في الاعتراف إلى حد كبير مع رصد أهم التطورات التعليمية والعلمية فضلا عن وجود بعض الدراسات عن بعض تلك السير – فإنها مازالت بحاجة إلى دراسة جامعة تركز على الخصائص العامة التي يشترك فيها أصحاب العقل الفلسفي، وربما يكون ذلك موضع بحث آخر مستقل في المستقبل القريب العاجل إن شاء الله.

وقد تطور فن السيرة في وقتنا المعاصر بحيث يسعى الباحث المتفلسف بنفسه إلى أن يُكتبَ عنه كتابٌ تَذْكاري يسهم فيه بشيء عن نفسه مع آخرين يُستكتبون عنه في حياته؛ ولا يخفي ما في ذلك الاتجاه المعاصر من تحيز واطراء قد يتجاوز حدَّ المبالغة غالبًا، وهذه ظاهرة واضحة الآن لدى بعض المشتغلين بالدرس الفلسفي المعاصر في الجامعات المصرية بحيث تستلفت الانتباه، وباتتْ سنةً متبعةً وماضية على الرغم من أن بداية هذه الفكرة كانت تدور في أول أمرها حول تقدير التلاميذ للأستاذ في لفتة وفاء منهم إلى جهود أستاذهم بعد وفاته، ومن ثم كانوا يُهدون إليه بعض أبحاثهم أو يعيدوا قراءة أفكاره وبعثها أو الإشادة بجهوده الفلسفية.[36]

المبحث الثاني: السيرة الذاتية الفلسفية)أبو بكر الرازي وابن سينا نموذجا):من المتوقع أن يندرج في سياق السيرة الذاتية الحديث عن النشأة ولادةً: مكانًا وزمانًا والشيوخ الذين تلقى على أيديهم العلوم والمعارف والكتب التي قرأها والرحلات التي قام بها، والكتب التي ألَّفها، ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية وأهم الصعوبات التي واجهها ... فهل هذا ما كان عليه شكل السيرة الفلسفية قديمًا؟! ذلك ما سنحاول بيانه في هذا المبحث، من خلال الوقوف على سيرتين ذاتيتين تمثلان نموذجا للسيرة الذاتية الفلسفية، محاولين المقارنة بينهما.

أولا: سيرة أبي بكر الرازي)الهدف والغاية(:لو أن هناك نصًا تامًّا كتبه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي(ت313هـ) عن سيرته لحلَّ لنا أزمةً كبيرةً فيما يتعلق بموقع الرجل من الطب أو الفلسفة حيث اختلف المترجمون له حول تمكُّنه من هذين العلمين، فترجم ابن جلجل له في الطبقة السابعة من "طبقات الأطباء" الذين برعوا في الطب والفلسفة من حكماء

الإسلام على النحو الآتي: "دبّر مارستان الري، ثم مارستان بغداد زمانا. وكان في ابتداء نظره يضرب العود، ثم نزع عن ذلك، وأكب على النظر في الطب والفلسفة، فبرع فيهما براعة المتقدمين، وألف في الطب كتبًا كثيرة بديعة، منها كتابه الذي سماه الجامع سبعون مقالة..."[37]ونلحظ هنا أنه لم يعرّج على الفلسفة كثيرًا بل قدَّم الطب عليها على الرغم من كونه من الذين برعوا – كما قال– في الطب والفلسفة جميعًا. وعلى الجانب الآخر نجد أن ابن أبي أصيبعة قد فعل العكس حيث قدّم الفلسفة على الطب إذ قال أبي بكر الرازي: "مولده ومنشؤه بالري، وسافر إلى بغداد وأقام بها مدة، وكان قدومه إلى بغداد وله من العمر نيف وثلاثون سنة، وكان من صغره مشتهيًا للعلوم العقلية مشتغلا بها وبعلم الأدب ويقول الشعر، وأما صناعة الطب فإنما تعلمها وقد كَبُرَ وكان المعلم له في ذلك على بن ربّن الطبري"[38] ونلحظ هنا أنه يُغلِّب الجانب الفلسفي على الجانب الطبي، وذلك يعني أن هناك اختلافًا بين المترجمين حول الجانب الفلسفي من شخصية الرازي من حيث يتقدم مرة ويتأخر أخرى، ويترجح هذا الجانب على غيره من كونهم قد انتقصوه فيه؛ إذ ينقل ابن أبي أصيبعة نفسه عن صاعد: وقال القاضي صاعد في كتاب التعريف بـ"طبقات الأمم" أن الرازي لم يوغل في العلم الإلهي ولا فهم غرضه الأقصى فاضطرب لذلك رأيه وتقلد آراءً سخيفة وانتحل مذاهب خبيثة وذمَّ أقواما لم يفهم عنهم ولا اهتدى لسبيلهم"[39]ولربما فسّر لنا ذلك محاولة الرازي نفسه إثبات الجانب الفلسفي في سيرته إذ قال: "من لم يعنى بالأمور الطبيعية والعلوم الفلسفية والقوانين المنطقية وعدل إلى اللذات الدنيائية فاتّهمه في علمه لاسيما صناعة الطب"[40]ولعل ذلك ما اهتدى إليه الرازي بكتابة سيرته الفلسفية مؤكدا على هذا الجانب في شخصيته.

جاءتْ السيرة الذاتية لأبي بكر الرازي في هيئة رسالة ضمن رسائله الفلسفية، أو كتابا كما سماها البعض، ويتضح جليًّا من عتبة العنوان (السيرة الفلسفية) أن أبا بكر الرازي لن يحيدَ في سيرته عن جوانب أخرى غير الجوانب الفلسفية، وبناءً على هذا العنوان، فمن الطبيعي أن يركز على الجانب الفلسفي من سيرته. وقد حداه إلى كتابة سيرته الفلسفية ما تلقاه من نقد بعض من عداته الذين نالوا منه بزعمهم أنه طبيب فحسب لاسيما إذا عرفنا أن شهرته كطبيب فاقتْ شهرته كفيلسوف، ولعل ما أزعجه حقًا أنهم لم يُقدِّروا جهده الفلسفي، ومن ثم رأى د. عبد اللطيف العبد أنه "كتب سيرته بنفسه، خوفًا من تحريفها على يد الخصوم، لاسيما وأنهم عابوه في حياته بأنه لم يكن فيلسوفًا، وليس متبعًا منهج سقراط، وقد صحح هذه الفكرة بنفسه وأثبت لهم أنه فيلسوفٌ، ويبدو جليًّا من سيرة أبي بكر الرازي الفلسفيَّة أنه قد حدد هدفه بوضوح حيث أراد أن يدْفَع بها عن نفسه أمام منْ يحطُّ من قدره ويضعه دون سقراط متهمًا إياه بأنه دونه في التفلسف، إذ قال عن ذلك: "ونذكر الطاعنين علينا ونذكر أنَّا لم نَسر بسيرةٍ إلى يومنا هذا– بتوفيق الله ومعونته– نستحقُ أن نخرج بها عن التسمية فيلسوفًا؛ وذلك أن المستحق لمحو اسم الفلسفة عنه من قصّر في جزءَي الفلسفة جميعًا– أعني العلم والعمل– بجهل

ما للفيلسوف أن يعلمه أو سار بما ليس للفيلسوف أن يسير به، ونحن بحمد الله ومَنِّه وتوفيقه وإرشاده فبُرَآءُ من ذلك"[41]ومن ثم جاءت السيرة الفلسفية في ثوب الدفاع بإثبات أنه فيلسوفٌ مثل سقراط، وسار على نهجه سواء بسواء بل زاد عليه في شهرته كطبيب حيث إن شهرته بالطب وسعتْ شهرتَه بالفلسفة.

ويرجع وجه اتهام أبي بكر الرازي– كما رواه الرازي نفسه – إلى أنه لم يَسِرْ في حياته الخاصة على طريقة سقراط حيث إن سقراط "كان لا يغشَى الملوكَ ويستخفُّ بهم إن هم غشوه، ولا يأكل لذيذ الطعام، ولا يبني ولا يقتني، ولا يُنشل، ولا يأكل لحما، ولا يشرب خمرا ... أما نحن فعلى خلاف ذلك"[42] وقد أشار الرازي إلى ذلك الاتّهام صراحةً في موضع آخر من كتابه المهم "الطب الروحاني" وإنْ لم يحدد لنا أصحاب الاتّهام صراحةً إلا على سبيل التنكير والوصف حيث قال: "إن ناسًا من أهل النظر والتحصيل، لمَّا رأونا نداخلُ الناس، ونتصرفُ في وجوه المعاش، عابونا واستنقصونا، وزعموا أنا حائدون عن مسيرة الفلاسفة، ولاسيما عن مسيرة إمامنا سقراط"[43]أي، أن الناس في زمانه قد أخذوا عليه أنه لم يكن زاهدًا في حياته كما كان حال الفلاسفة لاسيما سقراط؛ إذ كان أبو بكر الرازي في نظر أهل العلم والتحصيل هؤلاء كسائر الناس في اهتمامهم بأمر معاشهم وكثرة الاحتكاك بهم وربما مزاحمتهم فيما هم فيه فضلا عن اتصاله بالحكام وغشيان بلاطهم؛ الأمر الذي دعاهم إلى اتهامه بأنه قد خالف حال الفلاسفة وسمتهم الذي كانوا عليه من العزلة عن الناس والزهد فيما بين أيديهم وعدم اتصالهم بالحكام وكثرة طرق أبوابهم. ويبدو أن هذه الأمور كانت هي الصورة الذهنية عن الفيلسوف التي نُقِلتْ إلى المسلمين من خلال فلسفة سقراط على وجه الخصوص، فرأوا أن أبا بكر الرازي يخالف معهود هذه الصورة ويخرج عن سمتْ الفلاسفة؛ ومن ثم حكموا عليه بأنه ليس كسقراط في سيرته، ومن ثم فليس بفيلسوف. ورفض أبو بكر الرازي واستنكر بنفسه أن يُخرجَ من زمرة الفلاسفة جملةً مقارنةً بسقراط حيث قال: "ونحن وإن كنا غير مستحقين لاسم الفلسفة بالإضافة إلى سقراط فإنّا مستحقون لاسمها بالإضافة إلى الناس غير المتفلسفين"[44]وفي ذلك تسليمٌ لهم بأنه إن لم يكن كسقراط فلا أقل من كونه مستحقًا للقب فيلسوف بالإضافة إلى غيره، وهذه محاولة لتغيير الصورة الذهنية عن حال الفيلسوف من الصورة السقراطية باعتبارها مثالا إلى صورة الرازي المستقلة التي يحاول فرضها.

بناءً على ذلك اتّضح لنا أن كتابة سيرة الرازي الذاتية (الفلسفية) من الأهمية بمكان في تحديد صورة الفيلسوف وسماتِه على نحو يرفع به الالتباس أحيانًا عن حال الفيلسوف؛ وذلك ما وضّحه أبو بكر الرازي بنفسه في محاولته لتغيير الصورة التي رُسِمَتْ للفيلسوف في زمانه باستدعاء نموذج سقراط في محاولة منه لإعادة تصحيح صورته الفلسفية من جديد.

وتأسيسًا على ذلك فليس بمستغرب أن يكون أبو بكر الرازي نفسه قد حاول تصحيح هذه الصورة الكاملة للفيلسوف حيث تحدث في الفصل التاسع عشر من كتابه الطب الروحاني عن السيرة الفاضلة التي سار عليها الفلاسفة حيث قال: "إن السيرة الفاضلة التي بها سار وعليها مضى أفاضل الفلاسفة، هي بالقول المجمل: معاملة الناس بالعدل، والأخذ عليهم بعد ذلك بالفضل، واستشعار العفة والرحمة، والنصح للكل، والاجتهاد في نفع الكل إلا من بدأ منهم بالجور والظلم، وسعى في فساد السياسة، وأباح ما منعته وحظرته من المزح والعبث والفساد"[45]وذلك يعني أنه يركز في سيرة الفيلسوف على الجانب الأخلاقي في تعاملاته سواء مع الناس أو الحكام، بل سعى إلى تقديم سيرة فاضلة أخلاقية إذا سار إليها أي إنسان يحبه الناس إذ يقول في نهاية هذا الباب مقدما النصيحة عاملا بها: "لم يبقَ لنا من الكلام في هذا الباب(السيرة الفاضلة) إلا التذكير بالسيرة التي إذا سار بها الإنسان؛ سَلِمَ من الناس وأعطى منهم محبة. فنقول: إن الإنسان، إذا لزم العدل والعفة، وأَقَلَّ من مماحكة الناس ومجاذبتهم، سَلِم منهم على الأمر الأكثر، وإذا ضمّ إلى ذلك الإفضال عليهم والنصح لهم والرحمة لهم، أُوتي منهم المحبة. وهاتان الخلتان ثمرتا السيرة الفاضلة"[46]، وكأني بأبي بكر الرازي يريد هنا أن يهتم الفيلسوف بهذه القيم الأخلاقية في تعاملاته بحيث لا ينظر الساخطون عليه إلا من هذه الوجوه الأخلاقية بعيدًا عن مقارنته بحال سقراط أو غيره.

وعلى الرغم من عدم قبول هؤلاء المنتقصين العائبين للرازي لسيرة سقراطذاته؛ لأنها مخالفة للطبع الإنساني بيد أنهم حاكموا أبا بكر الرازي إلى سيرة سقراط وأفعاله وحكموا عليه بأنه ليس فيلسوفًا؛ لأنه لم يتشبّه بسقراط في حياته الخاصة. على الرغم منأن أبا بكر الرازي قد وضع سقراط في مرتبة عظيمة فهو إمامٌ كبيرٌ في رأيه، وبذلك أراد أن يقول لشانئيه من معاصريه: إنني أولى منكم بسقراط فهو (إمامنا) الذي نسير على دربه، ومن ثم قد انبرى أبو بكر الرازي دافعًا عن نفسه هذا الوهم مثبتًا أنه فيلسوفٌ بل إن ما اتُهم به الرازي وأُخِذ عليه من قبل خصومه كان عليه سقراط نفسه في مرحلة من حياته المتأخرة؛ وذلك ما يقصده بأن الاختلاف بينه وبين سقراط في الكمّ وليس في الكيف حيث بيَّن بأن الصورة التي كان عليها سقراط هذه ولم يكن عليها أبو بكر الرازي من مخالطة الحكام ... كانت في أول حياة سقراط فقط حينما كان محبًّا للفلسفة ومعجبًا بها حتّى إذا سقط فيها وزالتْ لذةُ جِدَّتها رجع إلى الاعتدال حيث أنجب وحضر مجالس اللهو وشرب يسيرا من الخمر.

ولعل هذا الكلام الذي ساقه أبو بكر الرازي يخالف ما ورد صراحة في ترجمة سقراط حيث ذكر ابن جلجل(ت377هـ) عن سيرة سقراط في الطبقة الثانية من طبقات الأطباء اليونان الذين جمعوا بين الحكمة الرومية والطب وبرعوا فيها قائلا: "وكان يأوي إلى دَنٍّ(جب أو الزير المكسور) ولم يبنِ دارًا ولا اتّخذ مسكنًا، وكان يشتملُ في كساءٍ

لم يتّخذ لنفسه غيره"[47] وأما ما ذكره من أنه كان يغشي الملوك فهو في ظاهره صحيح ولكن على نحو يعظُ فيه الملوك ويغلظ عليهم ويجبههم بما هم عليه من باطل، ولنا أن نتأمل هذا الحوار بين سقراط والملك إذ يقول عنه: "وخطر عليه ملك ناحيته فنظر إليه فوعظه سقراط، فقال له الملك: ما أقبح صورتك! فقال له سقراط. ليس ذلك إليَّ ما كان لي تتميمُه فقد تممتُه، يعني أخلاق النفس، فقال له الملك: لو أتيتنا أعطيناك. فقال سقراط: وما كنتَ تعطيني؟ فقال: الحرير، والذهب، والدُّر. قال سقراط: ما أراك تخدعُني إلا بلعاب الدُّود وأحجار الأرض وموجدات الصَّدف. إن ما في العُلا لأفضل من ذلك. قال الملك: أنت عبدٌ لي. قال سقراط: وأنت عبدُ عبدي. قال له الملك: وكيف ذلك؟ قال له سقراط: لأني رجلٌ أملك شهوتي المؤذية، وأنت رجل تملكك شهوتُك، فأنت عبدُ عبدي. قال له الملك: فما حملك على اتخاذ الدِّن والكون فيه؟ قال له سقراط: قطعت عن نفسي مؤنة كل دائر. قال له الملك: فإن انكسر الدِّن. قال له سقراط: إن انكسر الدِّن لم ينكسر المكان. فانصرف عنه الملك وقد دحضه"[48]ولا يخفى هنا مدى جرأة سقراط التي أودتْ به بعد أن أشاروا على الملك بقتله وشهدوا عليه أنه تنقّص آلهتهم فأمر به إلى القتل، فليس الأمر على نحو ما صوَّر لنا أبو بكر الرازي من أنه كان يغشي الحكام على نحو ما كان يفعل مستفيدًا من سلطانهم ونعمائهم، فسقراط لم يكن على هذا النحو في غشيانه للحكام، وربما كان تركيز أبي بكر الرازي على الجانب النفسيّ والأخلاقي في سيرته هو محاولةٌ منه لنهج طريقة سقراط في تركيزه على هذا الجانب تأثرًا به، وقد يبدو ذلك منه مقبولا لأنه بالفعل كتب عن الطب الروحاني(النفساني).

وبناءً عليه فقد طاول سقراط فيما كتب بل قد زاد عليه بأنه دوَّن ولم يُعرفْ سقراطُ بتدوينه لفلسفته؛ لأنه رأى أنها أشرف من أن تودع الرقاع وجلود الغنم فأودعها عقول تلاميذه[49] وبذلك أثبت للناس حظه من التفلسف.

وقد أورد أبو بكر الرازي– في الجانب العلمي من سيرته – كتبه الفلسفية التي ألَّفها في العلم الإلهي والحكمة والتي تثبت جدارته الفلسفية معتزا بتلك الكتب بقوله: "أما في باب العلم فمَنْ قِبَلِ أنَّا لو لم تكن عندنا منه إلا القوة على تأليف مثل هذا الكتاب لكان ذلك مانعًا عن أن يُمحى عنا اسم الفلسفة فضلا عن مثل كتابنا في البرهان وفي العلم الإلهي وفي الطب الروحاني ... وبالجملة فقرابة مائتي كتاب ومقالة ورسالة خرجت عنّي إلى وقت عملي هذه المقالة ... فإن لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي أستحق أن أسمَّى فيلسوفًا فمن هو ليت شعرى ذلك في دهرنا هذا!"[50]فمن الواضح أنه بعد أن أثبت جدارته كفيلسوف في الجانب العلمي سعى إلى إثباتها في الجانب العملي كذلك حيث وضّح أبو بكر الرازي أن السبب الذي كان يدفعه إلى المشي إلى الحكام بأن الملك إما أن يكون مريضا فيعالجه أو معافى فيشير عليه ويؤنسه، وهو باعتباره طبيبًا يعلم أثر الطب الروحاني في الطب الجسماني، ويفهم ذلك من الكتاب الذي وضعه لهذا الغرض.

ولا يفهم من ذلك أنه يرمي إلى التكسب من قبل الحاكم أو من قبل الناس إذ يقول ابن أبي أصيبعة: "ونقلت من خط بلمظفر بن معرف قال: كان الرازي يقول: أنا لا أسمي فيلسوفا إلا من كان قد علم صنعة الكيمياء؛ لأنه قد استغنى عن التكسب من أوساخ الناس وتنزه عما في أيديهم ولم يحتج إليهم"[51]، وذلك يعني أن كان يسعى إلى إقامة التوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح أو بين الطب الجسماني والطب الروحاني وإن حاول التركيز على الجانب الفلسفي في سيرته الذاتية هذه بحيث يمكن القول بأن "خلاصة هذه السيرة تدور حول فكرة أساسية واحدة هي أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان للتمتع بلذات الحياة وحسب، وإنما خلقه لهدف أسمى هو اقتناء العلم واستخدام العدل بعد الإيمان بالله وعبادته، واقتصر في هذه الرسالة على حياته العلمية فحسب"[52]

ثانيا: سيرة ابن سينا:إن المتأمل لسيرة ابن سينا سيجد أن ما نقله تلميذه أبو عبيدة الجوزجاني عنه هو سيرة ذاتية تكاد تكون كاملة؛ إذ أشار فيها إلى نشأته وأسرته إما على سبيل السرد والتقرير أو على سبيل الاعتراف والتبرير، ومن ذلك أنه سلك طريق الاعتراف بأن ما كانت تعتقده أسرته وتستره هو مذهب الشيعية الباطنية الإسماعيلية حيث كان أبوه وأخوه يعتقدان به بيد أن نفس ابن سينا لم تقبلهعلى الرغم من سماع أقوالهم مرارا بل تمت دعوته من قبل أسرته إلى اعتناق ذلك الفكر الذي لم تَطِبْ به نفسُه قال ابن سينا عن ذلك: "وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين، ويعد من الإسماعيلية؛ وقد سمع منهم ... وكذلك أخي، وكانوا ربما تذاكروا ذلك بينهم، وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي"[53] ولا ريب أنّ في ذلك الاعتراف دفْعٌ لأيّ اتّهام قد يلحق ابن سينا بالانتماء إلى الطائفة الإسماعيلية الباطنية، وذلك الاعتراف يعني أيضا أن ابن سينا لم يكن على الأقل مقلدًا أو تابعًا، فلم يكن أبوه ليصرفه أو يشككه فيما يراه، وإنما كان ذا عقل راجح مستقل وباحث عن الحقيقة من وجوهها المختلفة، ويبدو أن تهمة التشيع كان لها حظٌ من الذيوع والانتشار لاسيما في تلك البيئة التي احتضنت ذلك الفكر لفترة طويلة، وبناءً عليه لجأ ابن سينا إلى أسلوب الاعتراف في تقرير تبرئته لنفسه من التشيع، ولا نعلم على وجه اليقين هل كانت هذه تهمة له في عصره أم لا؟ ولكن الكتاب الذي كتبه الجيلاني جوابا على السؤال الذي وضعه هل كان ابن سينا شيعيا أم لا ؟[54] يبدوا من ذلك على أقل تقدير أن شبهة ما قد حامتْ حوله لاسيما أن بعض كتبه تشهد له بتأثره ببعض الأفكار الشيعية لاسيما المتعلق منها بالجوانب الإشراقية. وذلك أمرٌ طبيعي لرجل قد سمع كلامهم وعرف غاياته.

يستذكر ابن سينا رحلته في طلب العلم التي بدأها على عادة الصغار في ذلك الوقت بتعلم العلوم الدينية وحفظ القرآن الكريم ولكنه لم يقتصر على ذلك بل اكتسب شيئا من الأدب وأتم ذلك كله قبل سن العاشرة حتى أنه كان يُعجبُ له من شدة حفظه وإتقانه، ثم بعد ذلك تعلم الفقه على يد أبي إسماعيل الزاهد، ثم تم توجيهه إلى دراسة الفلسفة

لاسيما بعد أن رفض تقبل الفكر الإسماعيلي الباطني لعله يتقبل أفكارهم بعد ذلك، إذ قال عن ذلك الوقت: "وابتدأوا يدعونني إليه(أي، مذهبهم) ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ثم كان يوجهني(يقصد أباه) إلى رجل يبيع البقل قيمٌ بحساب الهند فكنت أتعلم منه"[55] أي أنه بدأ يتعلم الفلسفة من أبي عبد الله الناتلي الذي وصل بخاري آنذاك، وكان يدَّعي التفلسف ثم بدأ بدراسة المنطق أولا فقرأ كتاب إيساغوجي على الناتلي وكان يتصور المسائل أفضل من شيخه لدرجة كان يَعجب منها كلَّ العجب، ويبدو أن شيخه لم يتعمق معه مسائل المنطق فقرأ عليه ظواهره فقط دون دقائقه التي لم يكن له بها علم كما ذكر ابن سينا في قوله: "وكان أي مسألة قالها تصورتها خيرا منه ... حتى قرأت عليه ظواهر المنطق، وأما دقائقه فلم يكن عنده خبر منه"[56]، وذلك إشارة إلى ملكات ابن سينا في القدرة على الاستيعاب والحفظ وحسن تصور المسائل وسبر أغوارها، ولا ريب أن ذلك مما يجمل به طالب العلم ما لم يأخذه العجب أو الكبر في طلب العلم.

يذكر ابن سينا أنه كان يأخذ نفسه بالجد والمثابرة مدفوعًا بإرادة ناجزة وهمة عالية حيث بدأ ابن سينا يُعلِّم نفسه بنفسه، فطالع الشروح حتّى أحكم علم المنطق بل قرأ كتاب أوقليدس، إذ قال عن ذلك: "ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي، وأطالع الشروح، حتى أحكمتُ علم المنطق ، فأما كتاب أوقليدس فإني قرأتُ عليه من أوله خمسة أشكال أو ستة ثم توليتُ بنفسي حلَّ بقية الكتاب بأجمعه"[57] ثم انتقل إلى المجسطي وعرف الأشكال الهندسية، وطالبه الناتلي أن يقرأها بنفسه ويحلها بنفسه بل كان يعرضها على الناتلي ويفهمه إياها.

ويظهر جليًّا الطابع الفردي المدفوع بالهمة العالية في التعلم الذاتي للفلسفة دونما معلم حينما قال أيضا: "ثم فارقني الناتلي متوجهًا إلى كركانج، واشتغلتُ أنا بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح من الطبيعيات والإلهيات، وصارت أبواب العلم تنفتح على"[58] وليس أدل على تلك الذاتية في التعلم والرغبة الجارفة من عدم فهمه لكتاب أرسطو "ما بعد الطبيعة" إلىأن وجد كتاب "أغراض ما بعد الطبيعية" للفارابي، ونظرا لقدراته وملكاته فإنه حفظ الكتاب دون فهم له إلى أن ابتاع كتاب الفارابي.

بعد تحصيله للعلوم الفلسفية درج في دراسة علم الطب واعترف بأنه ليس من العلوم الصعبة كما كان الأمر مع الفلسفة؛ لأنه يقوم على التجريب حتى أنه قدَّم تجارب عديدة وحصَّله في أقل من سنة، وكان عمره في ذلك الوقت 16 سنة. بل برّز فيه على أقرانه حتى بدأ الأطباء يقرأونه عليه ثقةً في علمه، وليس أدل على صعوبة الفلسفة عن الطب في رأيه من عودته للقراءة في الفلسفة مرةً أخرى سنة ونصف بعد تحصيل الطب "فأعاد قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة حتّى أنه لم ينمْ طول هذه السنة ليلةً واحدةً بطولها حتى إذا غلبه النوم عمد إلى قدح من الشراب يسترد به قوته بل إنه كان يحلم

بالمسائل في نومه حتى قال: "واتضح لي كثيرٌ من المسائل في النوم، ولم أزل كذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني، وكل ما علمته من ذلك الوقت فهو كما علمته لم أزدْ إلى اليوم فيه شيئًا حتّى أحكمت العلم المنطقي والطبيعي والرياضي وانتهيت إلى العلم الإلهي، وقرأتُ كتاب ما بعد الطبيعة فلم أفهم ما فيه"[59]وذلك يعني مدى انشغال ابن سينا بالقضايا والمسائل التي يبحثها حتى أنها ملكت عليه حياته فلم ينمْ ليلةً بكاملها وإن نام فعقله الباطن يستدعي المسألة ويناقشها في منامه فإذا أصبح ظفر بالحلِّ الذي عنَّ له في نومه، وذلك يدل على شدة أخذ نفسه بالفلسفة والعلم حتّى حصَّل جميع العلوم.

ويبدو أن تلك الروح النهمة والمتعطشة إلى إدراك الحقائق لم تبرح ابن سينا بل كانت جزءًا من طبيعته، إذ يقول المستشرق الإيطالي "عابرييلي" عن نَهَم ابن سينا في كل شيء: "شُغِفَ حبُّ العلم والبحث بحب اللذات والشهوات من الأكل والشرب والجماع فأثَّر ذلك في مزاجه وعجَّل وفاته، وهو لم يبلغ بعد الستين سنة من عمره"[60]وأكد بروكلمان ذلك أيضا إذ يقول: "ونجد هذه الحكاية في أخبار العلماء للقفطي، وفي عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة، وقد كان البيهقي في تتمة صوان الحكمة أتّم ما وجد من ابن سينا نفسه بشيء ورد في كتب ثانية"[61] وذلك يعني أنهم نقلوا عن ترجمة ابن سينا ولم يكن هنالك مجال للزيادة أو النقصان، ولا ريب أن هناك فرقًا بين ما يكتبه المرء من أحوال نفسه وما ينقله أو يرويه غيره حتّى ولو كان تلميذه المقرب.ويفهم من ذلك أن ابن سينا كان يراعي أحيانا كثيرة ظروف عصره وثقافته التي لم تكن تسمح بالبوح في مثل هذه الأمور التي سترها الله على عباده، وذلك يعني أنه لم يكن زاهدا في الدنيا ولم يشر من طرف خفي بأنه لم يكن يولى الفضائل الأخلاقية في سيرته عناية كبيرة كما فعل أبو بكر الرازي.

لم يكن ابن سينا متهما بأنه يغشى الحكام على الرغم من أنه كان ملازما لهم بل كان يرتحل معهم في أسفارهم حتى في مرضه الأخير الذي كان من الممكن أن يُعذرَ فيه، ولم يؤخذْ عليه ذلك كما أخذ على أبي بكر الرازي من قبل، فعلى الرغم من أنه "خدم بعض أمراء بلاد فارس ورأى اختلاف الدول، وربما امتزج في أمور السياسة، ولكنه لم يُحدِّث عنها بما كان يجب من الدقائق فلم يُحرر إلا مختصرا في شبابه تممه تلميذه الجوزجاني بتعداد تآليفه"[62] وربما سبب تغلغله في السلطة يرجع إلى نشأته في بيت إمارة وحكم.

ثالثا: موازنة بين السيرتين: يطيب لنا هنا أن نوازن بين السيرتين الكبيرتين لهذين الطبيبين أو الفيلسوفين من بعض الوجوه، على النحو الآتي:

1)على الرغم من اشتراكهما في أسلوب العرض القصصي النثري فإن سيرة ابن سينا تعد سيرة مركبة (ذاتية/غيرية) حيث إن جزءًا منها كتبه ابن سينا بذاته والآخر كتبه تلميذه الجوزجاني، وربما كان أملاها عليه أو نقلها عنه في حين أن سيرة أبي بكر الرازي سيرة ذاتية.

2)على الرغم من أن السيرتين تشتركان في كونهما يتسمان بالقصر الذي يصل إلى مستوى الترجمات المطولة نوعًا ما فإن أبا بكر الرازي قد عرض لجانب واحد من حياته، وهو المتعلق بما وصفه بالسيرة الفلسفية الأخلاقية، أما سيرة ابن سينا فقد كانت سيرته تامّة وافية إذ تدرج فيها من الحديث الخاص عن نشأته وتعليمه وعمله ويشير لماما إلى الجوانب الأخلاقية.

3)على الرغم من حبهما الشديد للفلسفة اليونانية فإنهما يختلفان فإن كل منهما يمتاح من بئر مختلفة؛ إذ من البيّن أن الرازي على الرغم من إعلائه من شأن سقراط وتمجيده له فإننا نجد ابن سينا في المقابل قد أعلى من شأن أرسطو وكتبه؛ ولذلك توفر على شرحها واختصارها، أي أنهما في النهاية مشتركان في تأثرهما الشديد بأهم فلاسفة اليونان.

4)جدير بالملاحظة أن الفيلسوفين قد اختلافا في تلقيهما للعلوم السابقة على الفلسفة، ففي الوقت الذي أقرّ فيه أبو بكر الرازي بأنه لم يكن ماهرًا في الرياضيات إذ يقول: "فأما الرياضيات فإنّي مقرٌ بأنّي إنما لاحظتها ملاحظةً بقدر ما لم يكن لي منها بدٌ ولم أُفن زماني في التَّمهُّر بها بالقصد منِّي لا للعجز عنه، ومن شاء أوضحت له عُذري في ذلك بأنّ الصواب في ذلك ما عملته لا ما يعمله المُفنُون لأعمارهم في الاشتغال بفضول الهندسة من الموسومين بالفلسفة"[63] بل إن الرازي له كتاب "في عذل من اشتغل بفضول الهندسة من الموسومين بالفلسفة"– نجد في المقابل أن ابن سينا كان متمهّرا في الرياضيات بل كان يقرأ الكتب وحده ويفهمها أكثر من أساتذته. وإذا أردنا أن نحاكم بين أبي بكر الرازي وابن سينا في هذه المسألة فلنرجع إلى ما ذكره الفارابي من ضوابط لازمة ينبغي معرفتها لتعلم الفلسفة حيث أورد في الشيء الثالث منها لتعلم الفلسفة فهو نوع العلم الذي يُبدأ به قبل تعلم الفلسفة، فسنجد أنهم قد اختلفوا كما أورد الفارابي فأصحاب أفلاطون يرون أنه علم الهندسة باعتبار أن البراهين المستعملة فيه هي أصح البراهين، وبعضهم رأى أن يبدأ بعلم إصلاح الأخلاق؛ وذلك لأن من لم يصلح أخلاق نفسه لم يمكنه أن يتعلم علما صحيحا، وبعضهم رأى أن يبدأ بعلم الطبائع، وآخر بعلم المنطق. وذلك يعني أن المسألة فيها سعة فابن سينا سلك مسلك أصحاب أفلاطون في حين أن أبي بكر الرازي قد سلك مسلك مصلحي الأخلاق.

5)من المفارقات العجيبة بينهما أيضا أن ابن سينا كان له كتاب أسماه الشفاء في الفلسفة والالهيات وألّفه بناء على طلب تلميذه أبي عبيدة الجوزجاني الذي كان يدرسه ليلا هو وزملاءه موضوعات هذا الكتاب لانشغاله نهارا بالولاية وتطبيب الملك، وهذه التسمية بـ(الشفاء) لموضوعات الفلسفة والإلهيات توحي بأنه طبيبٌ روحانيٌّ أيضا يهتم بزاد الروح كما اهتم بتطبيب الأبدان، والأمر نفسه فعله أبو بكر الرازي بتأليفه كتاب "الطب الروحاني" كما ألف في الطب الجسماني، ومن ثم فهما فيلسوفان مهتمان بالجانب النفسي والروحي من الإنسان كما أنهما طبيبان يبرعان في معرفة الداء الجسماني.

6)ومن المفارقات العجيبة كذلك أنه على الرغم من أن ابن سينا كان على صلة قوية جدا بالحكام في عصره ويعمل على تطبيبهم كما فعل مع منصور بن نوح وغيره فإن أبا بكر الرازي قد طَبّب الحكام هو الآخر لكنه كان متهما بغشيان الحكام على الرغم من أن ابن سينا لم يكن يفارقهم حتى في أشد ظروفه المرضية كمرضه الذي مات منه ولم يلق أي اتهام؛ وربما كان ذلك لأن ابن سينا قد ورث ذلك عن والده الذي كان يشتغل متصرفا للأمير في أفشنة ثم بخارى.

7)ومن المفارقات العجيبة أن كليهما متهمٌ فإن كان أبو بكر الرازي لقي الاتهام في حياته بأنه طبيب وليس فيلسوفا ودافع عن نفسه فإن ابن سينا قد اتهم بالتشيع بعد مماته. فكلاهما متهم أحدهما في سيرته الأخلاقية والعلمية والآخر في عقيدته. وإن لم يسلم الرازي هو الآخر في عقيدته إذ نسب إليه أنه من منكري النبوة، وشاع هذا الاتهام عنه، إذ قال ابن أبي أصيبعة حينما ختم ترجمته بذكر كتبه: "كتاب فيما يرومه من إظهار ما يدعي من عيوب الأولياء (أقول) وهذا الكتاب إن كان قد ألّف والله أعلم فربما أن بعض الأشرار المعادين للرازي قد ألفه ونسبه إليه ليسيء من يربذلك الكتاب أو يسمع به الظن بالرازي وإلا فالرازي أجلّ من أن يحاول هذا الأمر وأن يصنف في هذا المعنى، وحتّى أن بعض من يذم الرازي بل يكفره كعلي بن رضوان المصري وغيره يسمون ذلك الكتاب كتاب الرازي في مخاريق الأنبياء"[64] ونلاحظ كذلك أن أبا بكر الرازي كان قد تناظر مع أبي حاتم الرازي الشيعي في مناظرة جمعت بينهما في بلاد الري، وانتصر للشيعة حميد الدين الكرماني في كتابه "الأقوال الذهبية" باعتبار أن أبا بكر الرازي يرفع من شأن العقل على حساب النبوة، وكانت هذه المناظرة بسبب اتهامه بأنه ينكر النبوات. وقد اتهم ابن سينا كذلك بأنه لا يعرف العربية كما عرف بكونه حكيما حيث قال له أبو منصور: إنك حكيم، ولكنك لم تقرأ من اللغة ما يرضى به كلامك، فاستنكف الشيخ من هذا الكلام، وتوفّر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ... فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها"[65]

8)من التشابه بينهما أنه بالرغم من كونهما طبيبين فإن أحدهما قد مات معلولا حيث

مات الرازي، وهو كفيف، قال ابن جلجل: "وعَمِي في آخر عمره بماء نزل في عينيه، فقيل له: لو قدحت! فقال: لا، قد نظرتُ إلى الدنيا حتى مللتُ، فلم يسمح بعينيه للقدح وكان في دولة المكتفي"[66]، ومات ابن سينا أيضا بالقولنج الذي كان يعالجُ الناس منه.

غاية الأمر أننا لو حاولنا المقارنة بين ما ذكره ابن سينا عن نفسه وما أورده تلميذه عنه سنجد أن سيرة ابن سينا قد اتسمت بالصدق والصراحة والواقعية والتجرد حيث كشف تلميذه لنا عن بعض الأسرار التي لم يرد ابن سينا بنفسه أن يكشف عنه وهو حبُّه الشديد للجماع والتي كانت من ضمن الأسباب التي أدت إلى ضعف قوته، ولم يكن ذلك الاعتراف مخلا بشجاعة ابن سينا وقدرته على الاعتراف بأخطاء سلوكية وأخرى عقلية حيث إنه قد اعترف – وهو الشيخ الرئيس – بأنه لم يفهم كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو على الرغم من أنه قرأه أربعين مرة حتى حفظه عن ظهر غيب، الأمر الذي يعني أن ابن سينا كان جريئا وقويا حتى أنه كان يذكر أنه اعترف بأنه ليس إسماعيليا كما أشيع. في حين أن سيرة الرازي الفلسفية سعت إلى إبراز الذات الفلسفية على حساب المضمون والحقيقة لاسيما بعد أن كشفنا حقيقة الادعاء بأن سقراط لم يكن زاهدا في نهاية حياته.

المبحث الثالث: سمات الفيلسوف:تأسيسا على ما ذكرناه في المبحثين السابقين يتضح لنا مدى أهمية السيرة الفلسفية في رسم صورة الفيلسوف وتحديد أهم سماته، واتضح لنا كيف حاول محمد بن زكريا الرازي تغيير هذه الصورة الذهنية التي وردتنا عن الفيلسوف في صورته اليونانية القديمة كالحال التي كان عليها سقراط، ويطيب هنا أن نضع عددا من تلك السمات على النحو الآتي:

أولا: محبة الفلسفة وشدة الإعجاب بها:من أبرز السمات التي كشفت عنها السيرة الذاتية لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي محبته الشديدة للحكمة لاسيما في بداية الصلة بها؛ إذ كان الإعجاب بها والكَلَف بمطالعتها زائدًا عن حد الاعتدال؛ ولا غرو في ذلك إذ قال عن سقراط: "ما كان في بدء أمره لشدة عجبه بالفلسفة وحبه لها وحرصه على صرف زمان الشهوات والشغل باللذات إليها ومؤاتاة طبعه له على ذلك، واستخفافه واسترذاله لمن لم يلاحظ الفلسفة بالعين التي تستحق أن تلاحظ بها وآثر ما هو أخس منها عليها. ولا بد في أول الأمور المشوقة المعشوقة من فضل ميل إليها وإفراط في حبها ولزومها وشنآن المخالفين لها"[67]. وبناء عليه رأى محمد بن زكريا الرازي أن "الثقف بالفلسفة شرط أوليٌّ في تكوين الفيلسوف"[68]،وكان يرى أن محبة الفلسفة لم تتأتَ له بالطبع والغريزة فحسب بل بالسعي وعدم التواني حيث بيَّن ذلك في مناظرته مع أبي حاتم الرازي حينما قال له: "وأنت مع ذلك تدَّعي أنك قد خُصِصتَ بهذه العلوم التي تدعيها من الفلسفة، وأن غيرك قد حرم ذلك، وأحوج إليك، وأوجبت عليهم التعلم منك والاقتداء بك قال(أبو بكر الرازي): لم أخص بها أنا دون غيري ولكني طلبتها وتوانوا فيها. وإنما حرموا ذلك لإضرابهم عن

النظر، لا لنقص فيهم والدليل على ذلك أن أحدهم يفهم من أمر معاشه وتجارته وتصرفه في هذه الأمور ويهتدي بحيلته إلى أشياء تدق عن فهم كثير منا وذلك لأنه صرف همته إلى ذلك ولو صرف همته إلى ما صرفت همتي أنا إليه وطلب ما طلبت لأدرك ما أدركت"[69] وذلك يعني أن الاستعداد وحده أو الإعجاب غير كافٍ في تحصيل الفلسفة أو الوصول إلى مرتبة الحكيم"فالحكيم عندهم من عرف شروط البرهان وقوانينه واستدرك وبلغ من العلم الرياضي والطبيعي والعلم الإلهي مقدار ما وسع الإنسان بلوغه"[70].

ويتضح ذلك الجانب من سيرة ابن سينا نفسه من أنه كان لا ينام الليل بطوله، وكان يقرأ الكتب وحده إذ يقول: "ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق"[71] ويتضح من رغبته في دراسة علم الطب وقراءاته الكتب فيه وتحصيله في سنة ونصف، ثم بعد أن اشتهر طلب من منصور بن نوح الساماني أن يدخل المكتبة ليطالع الكتب الطبية بها وغيرها من الكتب الأخرى التي لم يكن قد سمع بها من قبل، وذلك يشير إلى سمة أخرى من سمات الفيلسوف، وهي:

ثانيا: الشغف بالمعرفة وحبّ الاطلاع:إذا كان أبو بكر الرازي وابن سينا وغيرهما قد شغفوا بالفلسفة على وجه الخصوص فإنهما قد شغفا بالعلوم والمعارف جملة إذا يقول: "فأمّا محبتي للعلم وحرصي عليه واجتهادي فيه فمعلوم عند من صحِبَني وشاهد ذلك مني أني لم أزل منذ حداثتي وإلى وقتي هذا مكبًّا عليه حتى إني متى اتُفق لي كتابٌ لم أقرأه أو رجلٌ لم ألقه لم ألتفت إلى شغل بتةً – ولو كان في ذلك على عظيم ضرر– دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل. وإنه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة، وبقيت في عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمله الليل والنهار حتى ضعف بصري وحدث علىّ فسخ في عضل يدي يمنعانني في وقتي هذه عن القراءة والكتابة، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي وأستعين دائما بمن يقرأ ويكتب لي"[72] ولا ريب أن شغفه الشديد بالعلم والمعرفة هو الذي دعاه إلى الاستعانة بوسائل مساعدة بعد أن فقد وسائله الذاتية في التحصيل والاستزاده.

ولعل عشقه للفلسفة قد دعاه أن يبين طريقة للسلوك معها تميل إلى الاقتصاد في طلبها والصبر عليه دونما إفراط أو تفريط حيث ضرب أبو بكر الرازي مثلا عن ضرورة الاقتصاد في فكرنا وهمومنا –التي نروم بها بلوغ مطلوبنا– برجلين يحبان الفلسفة فأراد أن يستكملا نفسيهما بعلم الفلسفة، فأخذ أحدهما ينظر فيها حتى جعلها همّه واشتغل بها فكرُه ثم رام أن يبلغ ما بلغ سقراط وأفلاطون وأرسطو وثوفرسطس في مدة سنة مثلا فأدام الفكر والنظر، وأقل الغذاء والراحة، الأمر الذي يترتب عليه أن هذا الرجل يقع في الوسواس والمالخوليا وإلى الدق والذبول قبل مضي المدة والثاني إنما ينظر فيها

الوقت بعد الوقت إن فرغ من أشغاله وملَّ من لذته وشهوته فإذا عرضَ له أدنى شغل أو تحركت فيه أدنى شهوة ترك النظر وعاد فيها لما كان فيه أولا، فهذا الرجلان يعدمان مطلوبهما، أحدهما من جهة التقصير من أجل ذلك والآخر من جهة الإفراط؛ لأنهما لم يعتدلا في طلب ذلك[73].

ومن الواضح أن لدى الفلاسفة رغبة عارمة في استكمال أنفسهم بالعلوم والمعارف، وظهر ذلك جليا في سيرة ابن سينا حينما تعلم الطب في سنة، وقال عن نفسه أيضا أنه تعلم مسائل اللغة العربية وكتب فيها ما يعجز عنه من أنكروا عليه عدم معرفته بها كأبي منصور الجبائي، وأنه راجع مسائل الفلسفة والمنطق وانتهي من كل العلوم والمعارف وهو في سن 18 عشر عاما ولم يزدد علما جديدا بعدها. ويذكر عنه تلميذه الجوزجاني أنه صحبه وخدمه خمسا وعشرين سنة "فما رأيته إذا وقع له كتاب مجدد ينظر فيه على الولاء بل كان يقصد المواضع الصعبة منه والمسائل المشكلة فينظر فيها ما قاله مصنفه فيها فيتبين مرتبته في العلم ودرجته في الفهم"[74]وليس ذلك مقتصرا على الفلاسفة فحسب بل يمتد أيضا للصوفية الذين خلطوا الفلسفة بالتصوف حيث نجد ابن عربي في كتابه محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار أنه لم يترك كتابا إلا وقرأه، ومما قرأ السيرة لمحمد بن إسحاق، والمسند لابن حنبل وصحيح مسلم وصحيح البخاري.[75]

ثالثا: النظر والبحث عن الحقيقة:الفيلسوف الحق لا يبحث عن عالم الأشياء في ذاتها الظاهرة قدر بحثه عن حقائق الأشياء وكيف تتجلى في نفسه في صورة مواقف وصور، فهذا هو العالم الذي يقدمه الفيلسوف وليس عالم الأشياء بذواتها المعروفة، وتلك الرغبة كانت واضحة في سيرة الغزالي البحث عن الحقيقة كما في "المنقذ من الضلال" للغزالي، حينما قال: "وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور: دأبي، وديدني –من أول أمري وريعان عمري–: غريزة وفطرة من الله، وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي"[76] وكان أبو بكر الرازي يوجب النظر في الفلسفة باعتبار أنها سبيل مهم للخروج من الباطل، والوصول إلى الحق بل كان يرى أن الأنفس لا تصفو من كدورة هذا العالم ولا تتخلص إلى ذلك العالم إلا بالنظر في الفلسفة "فإذا نظر فيها ناظر، وأدرك منها شيئا ولو أقل قليل صفتْ نفسُه من هذه الكدورة وتخلصت"[77]

رابعا:النزعة الأخلاقية: إن الفيلسوف ينبغي أن يتحلى ببعض القيم الأخلاقية التي تجلت بوضوح من خلال بعض الدروس العملية المستفادة من سيرة الرازي من خلال النقاط الآتية:

1)أن المغبون من اشترى لذة بائدة منقطعة متناهية بدائمة غير منقطعة ولا متناهية.

2)أن الله وكل إلينا الأشياء الجزئية من حوائجنا كالحراثة والنسج وما أشبه ذلك مما به قوام المعيشة.

3)الفيلسوف يمرّن نفسه على العسير حتى تعتاده النفس ويسهل عليها بعد ذلك.

4)أن أفعالنا الإنسانية هي التي يترتب عليها ألمٌ باكتسابنا لها، أما أفعال الطبيعية فلا محالة تقع ولا يجب أن نألم لها أو نحسبها شرا بل قد تكون خيرا لنا.

قد تحلّى أبو بكر الرازي بالفضائل الأخلاقية إذ يروي عن ابن أبي أصيبعة بأنه كان "كريما متفضلا بارا بالناس حسن الرأفة بالفقراء والأعلاء(المرضى) حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم ولم يكن يفارق المدارج والنسخ ما دخلت عليه قط إلا رأيته ينسخ إما يسود أو يبيض".[78]

خامسا: الاعتداد بالنفس:أشار أبو حاتم الرازي إلى ما شاع عن أبي بكر الرازي من ادعائه بأن مرتبته أعلى من الفلاسفة السابقين عليه إذ يقول في مناظرته له مؤكدًا على إثبات المراتب والدرجات: «كما اتفقت عليه الفلاسفة أن أفلاطون كان إماما لأرسطاطاليس وأن أرسطاطاليس كان تلميذا له، وكما ادعيت أنهم نقصوا عن مرتبتك، حين أدركت ما تدعي أنهم لم يدركوه من الصواب، الذي زعمت أنهم أخطأوا فيه وأنه واجب عليهم الرجوع إلى قولك والاقتداء بك»[٧٩] والحق أن هذا ما قد نفاه أبو بكر الرازي في سيرته وأشاد فيها بسقراط باعتباره إماما، ولعل ذلك ما جعل أبا حاتم لم يأتِ على ذكر سقراط معرضًا عنه إلى تلاميذه. وذلك يدل على أن اعتداده بالنفس كان أحد المآخذ التي أخذت على أبي بكر في الوقت الذي كان يحاول فيه أن يثبت أنه فليسوف بنفس القدر الذي اشتهر به كطبيب.

وكان ابن سينا كذلك معتدًا – هو الآخر– بذاته العلمية، والدليل على ذلك قوله بعد تعلم كل علم: "وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يُقضى مني العجب" ويقول عن الفقه وكنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد(ت402هـ) وكنت أجود السالكين، وقد ألفت طرقت المطالبة ووجوه الاعتراض" ويقول عن أستاذه الناتلي الذي كان يعلمه الفلسفة والمنطق :"وكان أي مسألة قالها لي كنت أتصورها خيرا منه حتى قرأت عليه ظواهر المنطق أما دقائقها فلم يكن عنده منها خبر"[80] وقال عنه في موضع آخر "قد ارتبطه والدي وكنت استفدت منه قوانين المنطق وانتهيت إلى غوامض يتعجب الناتلي منها فلما انتهيت في تعلم الرياضيات إلى المعطيات والمخروطات.قال لي الناتلي: استخرج هذه الأشكال من ظنك ثم أعرضها علي وكان يستفيد بسبب هذه الواسطة مني"[81] وقوله في موضع آخر عن قراءته لكتاب المجسطي:

"وما كان الرجل يقوم بالكتاب وأخذت أحلُّ ذلك الكتاب، فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه".[82]

سادسا: الموسوعية والجمع بين النظرة العلمية والنزعة العملية:لم يغفل الفلاسفة القدماء الاشتغال بالعلوم جميعا دون أن ينحصروا في جانب منها، وتجلى ذلك بوضوح في ضوء كلام الفارابي فيما يجب أن يكون عليه الفيلسوف حتى قبل تعلم الفلسفة. ولعل ذلك يفسر لنا السؤال الملح دائما لماذا لم يعد هنالك فلاسفة بالمعنى القديم في عصرنا الذي غلبت فيه التخصصات الدقيقة داخل العلوم دون الإحاطة بالعلوم كلها أو بعضها لاسيما بعد أن كانت الفلسفة هي أم العلوم حتى انفصلت العلوم عنها في العصر الحديث؟

وعلى الرغم من موسوعية الرازي فإن بذور الانفصال قد أطلت برأسها منذ زمن مبكر بين الجانبين العلمي والعملي حيث إن هذا الاتهام قد طال أبا بكر الرازي نفسه من قبل منتقصيه الذين رأوا أنه لم يسر سير الفلاسفة من حيث الجمع بين العلم والعمل، الأمر الذي دعاه إلى بيان جمعه بينهما، إذ يقول: "فإن كان المقدار الذي أنا عليه من هذه الأمور عند هؤلاء القوم يحطّني عن رتبة الفلسفة في العمل، وكان الغرض من حذو سيرة الفلسفة عندهم غير ما وصفنا فليثبتوه لنا مشاهدة أو مكاتبة لنقبله منهم إن جاءوا بفضل علم، أو نرده عليهم إن أثبتنا فيه موضع خطأ أو نقص. وهَبْ أني قد تساهلتُ عليهم وأقررتُ بالتقصير في الجزء العملي، فما عسى أن يقولوا في الجزء العلمي؟ فإن كانوا استنقصوني فيه فليُلقوا إليَّ ما يقولونه في ذلك لننظر فيه ونذعن من بعد بحقهم أو نرد عليهم غِلَلَهم. فإن كانوا لا يستنقصونني في الجزء العلمي فأول الأشياء أن ينتفعوا بعلمي ولا يلتفتوا إلى سيرتي ليكونوا على مثل ما يقول الشاعر:

اعمل بعلمي فإن قصرت في عملي.... ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري"[83]

يستفاد من سيرة أبي بكر الرازي بوضوح أنه على الأقل يدعو إلى تجاوز حد الاعتدال بإثبات حظه من التفلسف على حساب العمل. والحق أن ذلك لم يكن لدى سقراط ولم يستفده كذلك أفلاطون بل إن من الصفات التي ساقها أفلاطون عن نفسه- في سيرته- أنه يجب أن يتحول الفكر النظري إلى إطار عملي، وذلك ما فعله حينما أقدم على المخاطرة بالذهاب إلى سراقسطة للإسهام في توعية الحاكم "ديونيزيوس" في قوله: "هكذا غادرتُ وطني ... ولم تكن الدوافع التي حركتني إلى ذلك كما تصور بعض الناس، بل كان الدافع الأساسي هو خوفي من الشعور بالخجل من نفسي، وخشيتي من أن أبدو في عيني مجرد رجل نظري عاجز عن إنجاز فعل واحد، وأن أقع في شبهة الخيانة لوفاء ديون وكرم ضيافته، وذلك في وقت كان فيه يتعرض لخطر لا يقل عن الخطر الذي يمكن أن أتعرض له"[84] وذلك يعني أن أفلاطون قد حاول أن ينقل للحاكم

آراءه الفلسفية حتى ينعم الناس بالسعادة الحقيقية العملية، ومن هنا فإنه كان يأمل من الحاكم أن يأخذ بآرائه أو يكون فيلسوفا؛ لأنه كان يعتقد "أن الجنس البشري لن يتخلص من البؤس حتى يصل الفلاسفة الحقيقيون الأصلاء إلى السلطة أو يصبح حكام المدن– بفضل معجزة إلهية– فلاسفة أصلاء"[85]وليس ذلك في واقع الأمر إلا لأنهم أقدر الناس على تطبيق فلسفاتهم ورؤيتهم الجامعة بين الخطة النظرية والطريقة العملية.

سابعا: الصلة بالحكام والصبر على المكاره: لم يخفَ في تاريخ الدرس الفلسفي صلةُ الفلاسفة بالحكام على مرّ التاريخ، بدءًا من سقراط وأفلاطون وأرسطو وكذلك الكندي والفارابي وأبو بكر الرازي وابن سينا وغيرهم؛ ويتضح ذلك من سيرهم ومؤلفاتهم التي أهديتْ أحيانا إلى هؤلاء الحكام، ولعل حاجة الحكام إلى من يطبب أجسادهم ويجلو نفوسهم كانت سببا لتقريبهم والإفادة من سلطانهم على الأجساد علاجًا ومداواةً وعلى النفوس رأيًا واستشارةً، علمًا بأن هذه السلطة على القلوب والعقول لا تقل عن سلطة الحكام، وربما سعى أحد الفلاسفة إلى الحاكم كي يطبق أفكاره كما حاول أفلاطون[86]، وربما كان الصلة نكالًا على صاحبها كما كان سقراط، وربما رفعتْ من شأن صاحبها كي يكون وزيرا أو مستشارا كما كان ابن سينا وأبو بكر الرازي، وربما ضاق الحاكم بهذه السمات التي يتصف بها الفيلسوف من الدقة والمنهجية الفكرية فضلا عن سعة الأفق التي يضيق بها غيره ممن هم دونه كذلك، ومثال ذلك ما تعرض له ابن سينا من مضايقات الجند الذين لم يسلكوا سبيل التفلسف، إذ روى الجوزجاني عن شيخه ابن سينا "ثم سألوه تقلد الوزارة فتقلدها، ثم اتفق تشويش العسكر عليه وإشفاقهم منه على أنفسهم، فكبسوا داره، وأخذوه إلى الحبس، وأغاروا على أسبابه، وأخذوا جميع ما كان يملكه، وساموا الأمير قتله فامتنع عن قتله، وعدل إلى نفيه من المملكة طلبا لمرضاتهم"[87] وحينما مرض الأمير مرة أخرى أعاد ابن سينا إلى القصر لمداوته ولما شفى أعاده كذلك إلى الوزارة.

ثامنا: الزهد في الدنيا:

من صفات الفيلسوف التي أشار إليها أفلاطون في معرض حديثه عن نفسه في الرسالة السابعة التي كتبها إلى أقارب ديون وأصدقائه حيث ذكر أنه عند زيارته لصقلية وإيطاليا لأول مرة نفر نفورا شديدا من الحياة التي يعيشها الناس هناك؛ لأنها حياة تقوم على ألوان الملذات الإيطالية والسيراقوزية ويحسبون أنفسهم سعداء بها يقول عن ذلك: "لم يَرق لي أن يعيش الإنسان لكي يملأ بطنه مرتين في اليوم، ولا ينام وحده أبدا بالليل، إلى غير ذلك من أمور تتفق مع هذا الأسلوب في العيش، فمن المستحيل على أي إنسان فانٍ نشأ منذ حداثته في هذه البيئة أن يصبح حكيما – إذ لا يوجد إنسان بهذا التكوين

العجيب – ولن يكون في إمكانه أن يبلغ الاعتدال والتدبر أو غيرهما من الفضائل"[88] ولو تأملنا هذا الوصف الذي يريده أفلاطون من الفيلسوف سنجده زاهدا في دنيا الناس فالطعام يكون مرة واحدة فقط، وكذلك ليس بالضرورة الركون إلى شهوة الجماع كل يوم كما في حياة الملذات؛ لأن ذلك عواقبه وخيمه، وقد أضعفت تلك اللذة ابن سينا بعد أن غلبته[89]على الرغم من كونه فيلسوفا ومتصفا بالحكمة، ولعل أفلاطون كان يشير إلى ما تقتضيه الحكمة في التعامل بحيث يوازن بين ضرورات النفس وشهواتها، بل يقال إن معالجي ابن سينا قد أعطوه جرعة زائدة من الكرفس أودتْ به حتى لا يحاسبهم على ما نهبوه من خزائنه إذا شُفي.

خاتمة: من الأمور التي يجب ملاحظتها على تلك السير أنها لم تكتب في كتب مستقلة، وأن كتابها من الحكماء

1. تتميز السيرة الفلسفية أنها كتبت بذات مؤلفيها دون محاولات كبيرةلإكمال النقص أو إخفاء المثالب أو الإغضاء عن العيوب أو الطير بالمترجم له في الآفاق كما يفعل لو كتبها أحد تلاميذه أو مريديه أو كما فعل أصحاب الطبقات في تراجمهم. بل هي أقرب ما تكون إلى الواقعية والموضوعية بعيدا عن المثالية الزائفة التي تجافي الواقع أو الخيال الجامح الذي يعلو عليه.
2. أنها سيرة ترصد التطور الفكري والعقلي للفيلسوف وما مر به من أزمات معرفية أو حياتيه، وذلك كما اتضح من سيرة الرازي حينما دافع عن نفسه بأنه فيلسوف عامل، وما فعله الغزالي في تدرجه إلى أن انتهى إلى التصوف، وما جرى عليه ابن سينا حينما تعرض لصعوبة كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو.
3. من أهم خصائص السيرة الذاتية التي يدونها الفيلسوف أنه يكشف فيها عن أغوار نفسه وبواطنها التي تخفى بطبيعتها عن ظاهر ما يراه الناس أو المترجمون له. فهو يكشف عما وراء الطبيعة هذه المرة من خلال تفاعله الداخلي مع مفرداتها وكيف يراها هو من حيث هي حقيقة وكيف تؤثر فيه بإعادة إنتاجها من خلال عقله هو أي أن القارئ ذاته يطلع على العالم الداخلي للفيلسوف من خلال نظارته العقلية التي يرتديها القارئ، ولعلنا هنا نطبق الفلسفة الجوانية التي نادى بها عثمان أمين من حيث أنها تسعى إلى الرؤية الواعية أو الإدراك الواعي للأشياء من الباطن مع مجاوزة المظهر، أي أن بناءها يكون على اللباب الجواني وليس على القشور والطلاء البراني للأشياء والحقائق.[90]
4. أن السير الفلسفية تكاد تختفي فيها ظاهرة السرد الفني بل يكاد يخف فيها نبرة الإحساس والمشاعر والوجدانيات بالقدر الذي ترتكز فيه على التفكير العقلي، ويتسلط النشاط العقلي على حساب المشاعر، ومن ثم يختفي الطابع القصصي

أو الروائي للسيرة على النحو الفني الذي ظهر لدى بعض الأدباء في العصر الحديث.

أهم النتائج:

1) السيرة الذاتية فن يختلط فيه التاريخ بالجغرافيا بالفكر والعلم والفلسفة من خلال التمحور حول الشخصية الساردة، فضلا عن الأحداث المختلفة وتوابعها ومدى تأثيرها على السارد.

2) من المهم جدا كما قال الفارابي معرفة الحال التي يكون عليها الفيلسوف أو المشتغل بالفلسفة ولن يكون ذلك إلا من خلال السيرة الذاتية التي تعد جزءا من فلسفة الفيلسوف حيث تكشف عن مسيرته المعرفية والعلمية والعملية ومن خلالها نستطيع أن نستخلص أبرز سمات الفيلسوف.

3) أن هناك صورة نمطية مغلوطة عن الفيلسوف وصلتنا عن اليونان رأى محمد بن زكريا الرازي وجوب تصحيها بكتابة سيرته بإثبات إمكاناته الفلسفية والعملية التي لم يتخل فيها عن اعترافه بفضل سقراط وإمامته.

هوامش البحث

1 د. زكي نجيب محمود: حصاد السنين، مؤسسة هنداوي، القاهرة ٢٠١٨، ص٣٠.

2 وقد انتشرت تلك السير الشفهية فيما يعرف بالقصص الشعبي الغنائي كقصة أبو زيد الهلالي، والزير بركات وأدهم الشرقاوي وغيرهم.

3 فبلمان: العظماء..عظماء اليونان والرومان والموازنة بينهم: بلوطرخوس، نقله إلى العربية ميخائيل بشارة داود، المجلد الأول، دار الغصو للطبع والنشر بمصر، ١٩٢٨م، ص٩.

4 محمد عبد الغني حسن: التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، ط٣/١٩٨٠، ص٢٣.

5لا يخفي أننا نعرف عن الفلسفات أكثر مما نعرف عن حياة الفلاسفة أنفسهم، على الرغم من أن حياة الفيلسوف تعد جزءا مهما من فلسفته بل الأساس الذي بنيت عليه رؤاه وأفكاره، ومن هنا يمكن أن تكون الفلسفة كاشفة عن شيء من معاناة الفيلسوف في عصره كما نجد ذلك في المدينة الفاضلة التي كتبها الفارابي متجاوزا حقيقة الواقع الذي عاشه، ومن هنا كانت أهمية دراسة حياة الفيلسوف نفسه لاسيما إذا ترك لنا سيرة

عن حياته.

6 ويتضح ذلك من خلال كتب التراجم والأعلام والتاريخ والطبقات تحاول وضع تراجم لهؤلاء تعرف بهم.

7 أحمد أمين: حياتي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٠، المقدمة، ص ج.

8 جمال الدين محمد بن مكرم بن علي ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، دار صادر، بيروت، ط٣/١٤١٤هـ، ص٣٩٠.

9 عبد الفتاح الأسود: الترجمة الذاتية بين أحمد أمين وطه حسين، مجلة كلية اللغة العربية،ع٤، المنصورة، ١٩٨٤، ص٦٠.

10 على الرغم من أن لحظة المولد والوفاة لا يدركهما الإنسان أصلا، ولكنه قد يعرف عنهما من سماعه من المقربين في سني صغره أو آخر أمنياتها.

11 انظر: د. مصطفى النشار: فن السيرة في الفكر اليوناني: أفلاطون وبلوتارخوس نموذجا، بحث منشور ضمن أعمال الندوة الفلسفية الثالثة والعشرون: السيرة الذاتية، جامعة المنيا، الجمعية الفلسفية المصرية، عام ٢٠١٤، ص١٣.

12 فليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلي، المركز العربي الثقافي، بيروت، ط١/١٩٩٤، ص٨..

13 محمد عبد الغني حسن: التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، ط٣/١٩٨٠، ص٢٣.

() أبو بكر الرازي: كتاب السيرة الفلسفية، بتصحيح ومقدمة بول كراوس وترجمة عباس إقبال، بانضمام شرح أحول وآثار وأفكار د. محسن مهدي، دار انتشارات، إيران، ١٣٤٣، ص١٠٠.

14 الفارابي: ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة، مبادئ الفلسفة القديمة، المكتبة السلفية، القاهرة١٩١٠م، ص٢،١٣.

15 أبو بكر الرازي: كتاب السيرة الفلسفية، ص١٠٠.

16 إحسان عباس: فن السيرة، دار الشروق، عمان، الأردن، ط١/١٩٩٦، ص٩٣ ،٩٤. فالسيرة هي فن الذاكرة حيث إن الإنسان ليس بإمكانه استعادة تفاصيل حياته على النحو الذي قد يتمكن منه في اليوميات إذا كتبها يوما بيوم، فالذاكرة تتجلى فيها الأحداث على نحو قد يتجاوز التفاصيل أو يعيد سردها على نحو قدرة الذاكرة على ترتيب أحداث الماضي حسب أهميتها لا بحسب حدوثها في الواقع.

17 مثل: «يوميات ألماني مسلم» مراد هوفمان، و»أيام في أمريكا» زكي نجيب محمود، و»يوميات نائب في الأرياف» توفيق الحكيم.

18 مثل:»مذكرات السلطان عبد الحميد»، «سيرتي منذ حداثتي»، وهي مذكرات نسيم متري الحلو، و»مذكرات طالب بعثة» لويس عوض، و»مذكرات جورجي زيدان»

و»مذكرات شاهد على العصر» مالك بن نبي.
19 مثل: اعترافات القديس أوغسطين في العصور الوسطى، واعترافات جان جاك روسو في العصر الحديث.

20 يمكن أن نفرق بين السيرة الذاتية والترجمة من حيث إن السيرة الذاتية هي ما يكتبه الإنسان بنفسه عن الطريقة التي سارت عليها حياته بشكل مطول مسهب، أما التراجم هو ما يكتبه غيره عنه بشكل موجز مجمل.

21 كما فعل سعد زعلول الكواكبي حفيد عبد الرحمن الكواكبي في ترجمته لجده المذكور تحت عنوان «جوانب من السيرة الذاتية للكواكبي» نشرها في ندوة حركة الإصلاح في العصر الحديث، بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، الأردن، ٢٠٠٢.
22 بكر عبد الله أبو زيد: العلماء الذين ترجموا لأنفسهم السيرة الذاتية، طبع بإجازة مديرية المطبوعات بوزارة الإعلام، السعودية، ط١/١٤٠٥هـ، ص١٨.
23 ويتضح هذا الأسلوب الروائي في عرض السيرة لدى بعض الأدباء المحدثين مثل: «زينب» لمحمد حسين هيكل و»سارة» و»حياة قلم» لعباس محمود العقاد و»زهرة العمر» و»سجن العمر» و»يوميات نائب في الأرياف» لتوفيق الحكيم و»سبعون» لميخائيل نعيمة.
24 . تقع السيرة الذاتية في نهاية الحياة ولكن الخطورة تكمن في أنه قد لا يكملها كما حدث مع الأستاذ الإمام محمد عبده الذي مات دون أن يكمل سيرته الذاتية، ومن هنا سنجد أن أغلب السير الذاتية تقع في العقود الأخيرة من حياة الإنسان، ومن ذلك ما كتبهبعض المفكرين والنقاد، مثل: حياتي قبل الخمسين، حياتنا بعد الخمسين ١٩٤٤ سلامة موسى، وسبعون ميخائيل نعيمة، في الخمسين عرفت طريقي، وبعد الخمسين د. محمود الربيعي.
25 . يجب ألا يُتَّهم أصحابُ السير الذاتية بأنهم أنانيون؛ لأن المقام السرديّ من مقتضيات السيرة الذي ينطلق فيه من ذاته ويجعلها محورا للأحداث والأشياء ورؤية الأشخاص الآخرين، واللغة العربية تعرف الضمائر ومعروف أن)أنا(ضمير للمتكلم وتعرف اللغة العربية كذلك الفاعل باعتباره قام بالفعل ولا بد من نسبة الأفعال إلى أصحابها على الرغم من إقرارنا بصعوبة ذلك، يقول محمد بهجة الأثري(ت١٩٩٦م) عن ذلك في سيرته: «والتحدث عن النفس شيء صعب، صعب جدا، لأنه قد يُشعر أحيانا، أن المتحدث إنما يكاد يتّصف بكلامه بشيء من الأنانية، ومن التفاخر والتظاهر، وهذا أكره ما أكرهه من أمور الحياة، الأناني إنسان يعمل لنفسه ولا يريد الخير لغيره» حميد المطبعي: سيرة العلامة الأثري بقلمه، المورد، مج٢٤، ع٢، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٩٦، ص٤. ويقول على الطنطاوي(ت١٩٩٩م) في سيرته «ذكريات»: «عفوًا فأنا لا أمدح نفسي، وأنا أعلم أن الحديث عن النفس ثقيل على السمع، وكلمة(أنا) ليست من الكلمات المستساغات، ولكن ماذا أصنع وأنا أدون ذكريات موضوعها(أنا)

فإن لم أتكلم عن نفسي في سرد ذكرياتي، فعمن تريدون أن أتكلم؟» دار المنارة للنشر، السعودية، ط١/١٩٨٥، ص١١، ١٢.

26. د.رودلف زلهايم: خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية، مجلة مجمع اللغة العربية، عدد ٤١، ١٩٧٨م، ص ٢٨، ٢٩.

27 يقول إحسان عباس في ترجمته «غربة الراعي– سيرة ذاتية» مسوغا عدوله عن الصراحة واعتذاره عن تغيير بعض الأسماء القليلة بقوله: «وكنت في شبابي متحمسا للصراحة الكلية في كتابة السيرة الذاتية ولكني حين وقفت أمام التجربة بنفسي، وجدت أن حماسة الشباب لا تستمر بعد عهد الشباب، وأني لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية تلك الصراحة وأن مجتمعي لا يزال يصد عن تقبلها» دار الشروق، الأردن، ط١/٢٠٠٦، ص٦.

28 خليل شكري هياس: السيرة الذاتية العربية تاريخ وثقافة، بحث منشور بمجلة كلية المعلمين، المجلد ١، عدد، ١، ص١٤١.

29انظر: د.عبد الرحيم العلمي: السيرة الذاتية في كتاب طوق الحمامة لابن حزم، بحث منشور بمجلة الإحياء، ع ١٥، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ٢٠٠٠م، ص٢٥٧.

30 انظر: سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة بقلمه، تحقيق وتعليق د. محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، ١٩٤٩م، ص ١٣.

31 محمد راتب الحلاق: الترجمة الذاتية محاولة في مقاربة المصطلح، قوافل، مقالات، مج ٧، عدد ١٣، النادي الأدبي بالرياض، ١٩٩٩، ص١١٩.

32 طبعت بدار المعارف١٩٥٧م.

33 منشورة بمجلة أوراق فلسفية، عدد١٠، ٢٠٠٤، ص٢٢٧–٢١٧.

34 منشورة بمجلة أوراق فلسفية، عدد٢٥، ٢٠٠٩م، ص ٢٨٢–٢٢١.

35 كما فعل تلاميذ د.محمود قاسم(ت١٩٧٣) معه بإصدار الكتاب التذكاري عن: محمود قاسم الفيلسوف والإنسان، وكذلك الكتاب التذكاري الذي صدر عن د. محمد عبد الهادي أبو ريدة(ت١٩٩١) الذي سعى فيه تلاميذه بعد وفاته بعامين لإظهار مناقبه العلمية وإسهاماته الجليلة، ود. توفيق الطويل وكذلك فعل تلاميذ د.أحمد محمود صبحي، وتلاميذ د.عاطف العراقي: فيلسوفا عربيا ورائدا للاتجاه العقلي التنويري: كتاب تذكاري دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٢م. وزملاء وتلاميذ د. حسن الشافعي تحت عنوان (حسن الشافعي العالم الموسوعي، مركز الإعلام العربي ط١/٢٠١٠) وعثمان أمين وغيرهم.

36 أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق، فؤاد سيد، ط المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥م، ص٧٧.

37 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، د. نزاررضا ، بيروت، مكتبة

الحياة، ص٤١٤.
38 عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج١/٤١٦.
39 عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج١/٤٢٠.
40 أبو بكر الرازي: كتاب السيرة الفلسفية، ص١٠٨.
41 كتاب السيرة الفلسفية، ص ٩١.
42 أبو بكر الرازي: الطب الروحاني، تقديم وتحقيق، د.عبد اللطيف العبد، مكتبة النهضة المصرية، بدون ط/١٩٨٧، ص٩٩.
43 كتاب السيرة الفلسفية، ص ٩١.
44 أبو بكر الرازي: الطب الروحاني، تقديم وتحقيق، د. عبد اللطيف العبد، ص١١٨.
45 السابق نفسه، ص١١٩.
46 أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق، فؤاد سيد، ص٣٠.
47 السابق نفسه، ص٣١.
48 قال عن ذلك: ما كنت لأضع العلم في جلود الضآن. انظر: أبو داود الأندلسي: طبقات الأطباء والحكماء، ص٣١.
49 أبو بكر الرازي: كتاب السيرة الفلسفية، ص١٠٠، ١٠١.
50 عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج١/٤١٩.
51 خليل شكري هياس: السيرة الذاتية العربية تاريخ وثقافة، بحث منشور بمجلة كلية المعلمين، المجلد 1، عدد،، ص141.
52 يحيى بن أحمد الكاشاني: نكت في حياة بن سينا، ص١٠.
53 راجع: كتاب توفيق التطبيق في إثبات أن الشيخ الرئيس من الشيعة الاثني عشرية على بن فضل الله الجيلاني.
54 يحيي بن أحمد الكاشاني: ذكرى ابن سينا نكت في أحوال الشيخ الرئيس ابن سينا، ، تحقيق د.أحمد فؤاد الأهواني، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٢، ص١٠.
55 السابق نفسه، ص١١.
56 السابق نفسه.
57 السابق نفسه، ص١٢.
58 ذكرى ابن سينا، تحقيق د. أحمد الأهواني، ص١٣.
59 غابرييلي: ذكرى ابن سينا، بحث منشور ضمن المنتقى من دراسات المستشرقين، جمعها ونقلها إلى العربية صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٥، ج١، ص١٦٤.
60 بروكلمان: ما صنف العرب في أحوال أنفسهم، ضمن كتاب المنتقى من دراسات

المستشرقين، ج١، جمعها ونقلها إلى العربية وعلق عليها د. صلاح الدين المنجد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،١٩٥٥، ص١٠.
61 بروكلمان: ما صنف علماء العرب في أحوال أنفسهم، ص ١٠.
62 أبو بكر الرازي: كتاب السيرة الفلسفية، ص١٠١.
63 عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج١/٤٢٦.
64 ظهير الدين البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، عني بنشره وتحقيقه، محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٤٦، ص٦٥.
65 طبقات الأطباء والحكماء، ص ٧٨. ونكت في أحوال الشيخ ابن سينا، ص٢٣.
66 السيرة الفلسفية، تحقيق، مهدي محقق، ص ٩٢.
67 الطب الروحاني، ص ٦٣.
68 المناظرات بين الرازيين، منشور ضمن كتاب الطب الروحاني، تقديم وتحقيق د.عبد اللطيف العبد، ص١٢٧، ١٢٨.
69 أبو بكر الرازي: الطب الروحاني، ص٦١.
70 نكت وأحوال ابن سينا، ص١٢.
71 أبو بكر الرازي: السيرة الفلسفية، محقق مهدي، ص ١٠٢.
72 أبو بكر الرازي: الطب الروحاني، تحقيق د. عبد اللطيف العبد، ص٨٢.
73 كاظم الطريحي: ابن سينا بحث وتحقيق، ص ١٩.
74 ابن عربي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ج١، دار صادر، ١٩٦٨، ص٥.
75 أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، حققه وعلق عليه عبد الحليم محمود، الأنجلو المصرية، ط٤/١٩٦٤، ص١٣.
76 المناظرات بين الرازيين ضمن كتاب الطب الروحاني، ص ١٣٤.
77 عيون الأنباء في طبقات الأطباء/ ١/٣١١.
78 المناظرات بين الرازيين، منشور ضمن كتاب الطب الروحاني، تقديم وتحقيق د.عبد اللطيف العبد، ص١٣١.
79 نكت في أحوال الشيخ ابن سينا، ص١٠، ١١.
80 ظهير الدين البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، عني بنشره وتحقيقه، محمد كرد علي، ص٣٧.
81 نكت في أحوال الشيخ ابن سينا، ص١٣.
82 كتاب السيرة الفلسفية، ص١٠٣.
83 أفلاطون: المنقذ قراءة لقلب أفلاطون مع النص الكامل للرسالة السابعة، عبد الغفار مكاوي، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧، ص١٠٨.
84 عبد الغفار مكاوي، ص١٠٤.
85 روى التوحيدي في كتابه الامتاع والمؤانسة أن «ديوجانيس» سئل متى تطيب

الدنيا؟ فقال: «إذا تفلسف ملوكها، وملك فلاسفتها» فلم يرض الوزير عن هذا، وقال: إن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرغ نفسه للدار الآخرة؛ فكيف يكون الملك رافضا للدنيا وقاليًا لها، وهو محتاجٌ إلى سياسة أهلها، والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفي مفاسدها» من مقدمة تحقيق الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين،ن.

86 ذكرى ابن سينا، تحقيق الأهواني، ص١٨.

87 أفلاطون: المنقذ قراءة لقلب أفلاطون، ص١٠٥.

88 قال ظهير الدين البيهقي: «وكانت قوة المجامعة عليه أغلب، وكان يشتغل باستفراغها، فأثر ذلك في مزاجه، وكان لا يعالج شخصه، حتى ضعف في السنة التي حارب فيها علاء الدولة الأمير حسام الدولة ... وعرا الشيخ داء القولنج» تاريخ حكماء الإسلام، ص ٦٨.

89 انظر: عثمان أمين: فلسفة الجوانية، المجلة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، عدد ٣٧، يناير ١٩٦٠، ص٢٩، ٣٠.

قائمة بأهم المصادر والمراجع:

- ابن عربي(١٩٦٨)، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ج١، بيروت، دار صادر.
- أبو بكر الرازي(١٣٤٣): كتاب السيرة الفلسفية، بتصحيح ومقدمة بول كراوس وترجمة عباس إقبال، بانضمام شرح أحول وآثار وأفكار د. محسن مهدي، ، إيران، دار انتشارات.
- أبو بكر الرازي(١٩٨٧): الطب الروحاني، تقديم وتحقيق، د.عبد اللطيف العبد، بدون ت طبع، مكتبة النهضة المصرية.
- أبو داود سليمان الأندلسي(١٩٥٥): طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق، فؤاد سيد، ط المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.
- إحسان عباس(٢٠٠٦): غربة الراعي سيرة ذاتية، ط١، الأردن، دار الشروق.
- إحسان عباس(١٩٩٦): فن السيرة، ط١، عمان، الأردن، دار الشروق.
- أفلاطون(٢٠١٧): المنقذ قراءة لقلب أفلاطون مع النص الكامل للرسالة السابعة، عبد الغفار مكاوي، القاهرة، مؤسسة هنداوي.
- بروكلمان(١٩٥٥): ما صنف علماء العرب في أحوال أنفسهم، ضمن كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين، ج١، جمعها ونقلها إلى العربية وعلق عليها د. صلاح الدين المنجد، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- بلوطرخوس(١٩٢٨): العظماء(عظماء اليونان والرومان والموازنة بينهم، عربه، ميخائيل داود، مج١، مصر، دار الغصو للنشر.
- خليل شكري هياس( ): السيرة الذاتية العربية تاريخ وثقافة، بحث منشور بمجلة كلية المعلمين، المجلد ١، عدد، ١.

- رودلف زلهايم (١٩٧٨): خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية، مجلة مجمع اللغة العربية، عدد ٤١.
- زكي نجيب محمود (٢٠١٨): حصاد السنين، القاهرة، مؤسسة هنداوي.
- سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة بقلمه(١٩٤٩)، تحقيق وتعليق د. محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري.
- ظهير الدين البيهقي(١٩٤٦): تاريخ حكماء الإسلام، عني بنشره وتحقيقه، محمد كرد علي، دمشق، مطبعة الترقي مطبوعات المجمع العلمي العربي.
- عبد الفتاح على الأسود(١٩٨٤): الترجمة الذاتية بين أحمد أمين وطه حسين، عدد٤، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة.
- عثمان أمين(١٩٦٠): فلسفة الجوانية، المجلة، مصر، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، عدد يناير ٣٧.
- فليب لوجون(١٩٩٤): السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلي، بيروت،ط١، المركز العربي الثقافي.
- محمد الحلاق(١٩٩٩): الترجمة الذاتية محاولة في مقاربة المصطلح، قوافل، مقالات، مج ٧، عدد ١٣، النادي الأدبي بالرياض.
- محمد عبد الغني حسن(١٩٨٠): التراجم والسير، القاهرة، ط٣/دار المعارف.
- مصطفى النشار(٢٠١٤): فن السيرة في الفكر اليوناني: أفلاطون وبلوتارخوس نموذجا، بحث منشور ضمن أعمال الندوة الفلسفية الثالثة والعشرون: السيرة الذاتية، جامعة المنيا، الجمعية الفلسفية المصرية.
- يحيي بن أحمد الكاشاني(١٩٥٢): ذكرى ابن سينا نكت في أحوال الشيخ الرئيس ابن سينا، تحقيق د.أحمد فؤاد الأهواني،القاهرة، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.